روايات الشمس

فلاش

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

تأليف
فرجينيا ولف

ترجمة
عطا عبد الوهاب

● هذه هي الترجمة الكاملة لرواية : Flush : A Biography
الصادرة في لندن عام ١٩٣٣ .
● الطبعة العربية الأولى ١٩٩٢ .
● طبع الداخل بمطابع دار الحكمة – بغداد .
● راجع النص العربي : زهير أحمد القيسي .
● الناشر : دار الشمس للنشر والاعلان.
بغداد . العراق . ص . ب ١٩٣٢٥ ، هاتف ٧١٧٤١١٥

٨٦٣
و ٨٧ ولف ، فرجينيا
فلاش: سيرة حياة: رواية/ تأليف: فرجينيا ولف، ترجمة عطا عبد الوهاب. ـ بغداد: دار الشمس للنشر واعلان، ١٩٩٢.
ص ؛ ١٥ سم
١ـ القصص الاسبانية أ. عطا عبد الوهاب (مترجم) ب. العنوان
م . ر
١٩٩٢/١١١

twitter @baghdad_library

فلاش

سيرة حياة

تأليف
فرجينيا ولف

ترجمة
عطا عبد الوهاب

بغداد
١٩٩٢

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

« ثري مايل كروس »

من المعترف به عموماً أن الأسرة التي ينحدرمنها الكلب فلاش ، وهو موضوع هذه الذكريات ، كانت أسرة عريقة في القدم . فلا عجب إذن إن كان أصل اسم الأسرة ذاته قد ضاع في غياهب المجهول . فقبل ملايين متعددة من السنين كانت البلاد التي تسمّى الآن إسبانيا تمور بقلقٍ في غليان الخلق . ومرت الدهور ؛ وظهر النبات ؛ وقضى قانون الطبيعة بأنه أينما وجد النبات وجدت الأرانب ؛ وقضت العناية الإلهية بأنه أينما وجدت الأرانب وجدت الكلاب . ليس هناك في هذا ما يدعو الى التساؤل أو الى التعليق . ولكنْ ، ما إن نسأل لماذا سُمّي الكلب الذي اصطاد الأرنب بالكلب الاسپانيولي إلا تبدأ الشكوك وتظهر المصاعب . يقول بعض المؤرخين بأنه حين نزل القرطاجنّيوّن الى البر الاسپاني صاح الجنود العاديون بلسان واحد : « سپان ! سپان ! " ذلك أن الأرانب كانت تنطلق من كل دغل ومن كل أجمة . كانت البلاد تعج بالأرانب . و " سپان " باللسان القرطاجي كلمة تعني الأرنب . وهكذا سُميّت البلاد هسپانيا Hispania ، أي بلاد الأرانب ؛ أما الكلاب التي شوهدت على الفور وهي تجري وراء الأرانب فقد سميت بالكلاب الاسپانيولية ، أي كلاب الأرانب .

سيقنع كثير منا بترك المسألة عند هذا الحد ؛ لكن الحقيقة تقتضينا أن نضيف أن هناك مدرسة أخرى من مدارس الفكر ترى رأياً مختلفاً . يقول علماء هذه المدرسة إن كلمة هسپانيا لاعلاقة

لها على الإطلاق بالكلمة القرطاجية " سپان " . وعندهم أن هسپانيا مشتقة من الكلمة الباسكية إسپانيا espãna التي تعني حافةً أو حدوداً . إن كان الأمر كذلك فإن تلك الصورة الرومانسية اللطيفة كلها من الأرانب والأجمات والكلاب والجنود يجب طرحها من الذهن ؛ فيتعين علينا ببساطة أن نفترض أن الكلب الاسپانيولي إنما يسمى اسپانيولياً لأن Spain تسمى Espãna . أما المدرسة الثالثة المعنية بدراسة الماضي المندرس - وهي تفيد بأنه كما يدعو العاشق عشيقته بالغول أو القرد فكذلك يدعو الاسپانيون كلبهم المفضل بالملتوي أو الوعر (فالكلمة espãna يمكن أن تحمّل مثل هذه المعاني) لأن الكلب الاسپانيولي هو على نقيض ذلك تماماً - فهي مدرسة الخيالُ فيها هو من الإغراب الخصيب بحيث لايمكن تصوره على نحو جدي .

وما أن نتغاضى عن هذه النظريات وغيرها ، وهي نظريات لاينبغي لها أن تجعلنا نتوقف هنا حيث نحن ، حتى نصل الى ويلز في أواسط القرن العاشر . إن الكلب الاسپانيولي موجود هناك أصلاً ، وقد جاءت به ، كما يقول البعض ، القبيلة الاسپانية المسماة " إبهور " أو " إيفور " قبل قرون ؛ لقد كان بالتأكيد ، عند حلول أواسط القرن العاشر ، كلباً ذا صيت عريض وقيمة عالية . وقد ذكر " هاول ذا " Howel Dha في مؤلفه " سجل الشرائع " : " ان اسپانيولي الملك قيمته جنيه " . فإذا تذكرنا مايمكن أن يشتريه الجنيه سنة ٩٤٨ للميلاد - كم من الزوجات والعبيد والخيول والثيران والديوك الرومية والأوز - اتضح لنا أن الاسپانيولي كان قد صار أصلاً كلباً ذا قيمة وشهرة . كان له

twitter @baghdad_library

موقعه بجانب الملك . وكانت سلالته موضع التكريم قبل أن تحظى بذلك سلالات كلاب أخرى تعود لمشاهير الملوك . كان الكلب الاسپانيولي مطمئن البال في قصور سادة القوم حين كان أفراد الأسر التي حكمت البلاد في مابعد من آل پلانتاجينيت وآل تيودور وآل ستيوارت لايزالون يضربون في الأرض ، يسعون وراء محاريث الآخرين في أطيان الآخرين . وقبل أمد طويل من إرتقاء الأسر الشهيرة ذات الأسماء الطنانة واعتلائها مراتب تفوق مرتبة الأفراد العاديين كانت أسرة الكلب الاسپانيولي أسرة متميزة ومتفردة بذاتها . وما أن مضت القرون حتى تفرعت من الجذع الأصلي أغصان صغيرة . وبينما كان التاريخ الانكليزي يجري في مساره جاءت إلى حَيزّ الوجود ، على درجات ، سبع أسر مشهورة من الاسپانيولي في الأقل – الكلمبر والساسكس والنورفوك والبلاكفيلد والكوكر والايريش ووتر والانكليش ووتر ، منبثقة بأجمعها من الاسپانيولي الأصلي لما قبل التاريخ ولكنها تظهر خصائص متميزة بها ، لذلك فهي بلا ريب تدعي لنفسها امتيازات خاصة . أما وجود أرستقراطية للكلاب بحلول الزمن الذي كانت فيه الملكة اليزابيث تعتلي العرش فهو مايشهد به السير فيليب سدني ، فقد ذكر في كتابه " أركاديا " : " ... ثمة كلاب من نوع السلوقي وكلاب من نوع الاسپانيولي وكلاب الصيد ، ويمكن اعتبار الفئة الأولى من لوردات الكلاب والثانية من النوات والثالثة من الاتباع الصغار . "

ولئن كنا نساق على هذا الأساس الى افتراض أن الكلاب الاسپانيولية إنما اتبعت الأسوة الإنسانية فتطلعت الى السلوقي

باعتباره الأرقى واعتبرت كلاب الصيد هي الأدنى ، فإن علينا الإقرار بأن أرستقراطية الكلاب قامت على مسبّبات أفضل من مسببات أرستقراطية بني الإنسان . تلك هي في الأقل النتيجة التي لابد أن يتوصل إليها الباحث في قوانين نادي الكلاب الاسپانيولية . فلقد حددت تلك الهيئة المعظمة بوضوح تام ما الذي يؤلف رذائل الاسپانيولي وما الذي يؤلف فضائله . العيون الفاتحة اللون ، مثلاً ، غير مرغوب فيها ؛ الأذن الجعداء أسوأ من ذلك ؛ أما أن يولد هذا الكلب بأنف هزيل أو نؤابة من الشعر في رأسه فما ذلك إلا كارثة مهلكة . إن مميزات الاسپانيولي محددة كذلك بالوضوح نفسه . فرأسه يجب أن يكون ناعم الملمس ، مرتفعاً من الرقبة بلا إنحناءٍ بيّن ؛ والجمجمة مكورة نسبياً وحسنة التكوين مع سعة لقوة المخ ؛ العيون مكتملة إنما ليست جاحظة ؛ والسيماء العامة هي سيماء الذكاء واللطف . إن الكلب الاسپانيولي الذي يظهر هذه الصفات يُرعى ويكثّر ؛ أما الذي يواصل تأبيد نؤابات الشعر والأنوف الهزيلة فيحرم من الامتيازات والمنافع التي يتمتع بها بنو جنسه . هكذا شرّع أهل الحل والربط القانون ، وفرضوا عقاباً وثواباً لضمان إطاعته .

أما إذا أجلنا نظرنا في المجتمع الإنساني فيا له من مشهد تقع عليه العين ، مشهد يعج بالفوضى ويبرز من خلاله الاستنتاج النهائي ! فما من نادٍ يمارس مثل هذا الاختصاص على سلالة الإنسان . إن أقرب مالدينا شبهاً بنادي الكلب الاسپانيولي هو ما يسمى بـ " هيئة شعار الأسرة " . فهذه الهيئة تحاول العمل ، بعض الشيء في الأقل ، على حفظ نقاء الأسرة الإنسانية . ولكنْ

twitter @baghdad_library

حين نسأل ممّ يتكون المولد الشريف – هل يجب أن تكون عيوننا فاتحة اللون أم غامقة ، وآذاننا جعد أم سبطة ، وهل تعتبر نؤابات الشعر كارثة مهلكة – نجد أهل الحل والربط عندنا يحيلوننا الى شعار الأسرة فقط . لعلك لا شعار لديك . إذن أنت نكرة . ولكنْ ما أن تفلح في إثبات نسبك لستة عشر ظهراً وتثبت حقك بتاج صغير من تيجان النبلاء حتى يقولون إنك إنما ولدت حقاً ، لابل ولدت نبيلاً . ومن هنا فما من خباز كعك في حي " مي فير " الراقي بأسره يعوزه شعار بأسد رابض أو حورية قائمة . حتى باعة الأغطية عندنا يرفعون الشعار الملكي فوق أبوابهم ، كأن ذلك هو البرهان على أن النوم في أغطيتهم نوم آمن . إن المقام الرفيع يدعّى في كل مكان ويجري إظهار فضائله إظهاراً . مع هذا فحين نستعرض البيوتات المالكـــة من آل بوربون وهابسبرغ وهوهنزوليرن ، نجدها وقد زخرفت بعددٍ لايحصى من التيجان ومن رموز النسب ظهراً بعد ظهر مطرزةً بعددٍ لايحصى من شعارات الأسود والفهود وقد ربضت أو وثبت ، ثم نجدهم الآن في المنفى وقد خلعوا عن السلطان ، واعتبروا غير جديرين بالاحترام ، فلا يسعنا إلا أن نهز رؤوسنا أسفاً ونقر بأن أهل الحل والربط لنادي الكلب الاسپانيولي قد قرروا على نحوٍ أفضل . ذلك هو الدرس الذي ينطبع في الأذهان عند انتقالنا الآن من هذه الشؤون العليا الى النظر في الحياة الباكرة للكلـــب فلاش في أسرة متفورد .

كانت هناك في نهاية القرن الثامن عشر عائلة كلاب من السلالة الإسپانية الشهيرة تعيش بالقرب من بلدة ردنغ في بيت

شخص يدعى مدفورد ، ولكنه اختار فيما بعد ، وفقاً لسنن " هيئة شعار الأسرة " أن يتهجا إسمه بحرف التاء . متفورد ، بدلاً من الدال ، وهكذا ادعى الانحدار من أسرة نورثمبرلاند من آل متفورد من سكنة قلعة برترام . أما زوجته فهي الآنسة راسل وتنتمي يقيناً ولو من بعيد الى دوقية بدفورد . لكن التزاوج بين أسلاف الدكتور متفورد كان يجري بدرجة من الإهمال المفرط للمبادىء بحيث لايتسنى لأية هيئة من المحكمين أن تقر زعمه في طيب المحتد أو تبيح له تأبيد نوعه . عيناه فاتحتا اللون ؛ أذناه جعداوان ؛ رأسه يكشف عن نؤابة الشعر المقيتة . كان ، بعبارة أخرى ، أنانياً مطبقاً ، مبذراً بإفراط ، محباً للذات الدنيا ، غير مخلص ومدمناً على القمار . بدد أمواله وأموال زوجته وما كانت تكسبه إبنته . لقد هجرهما أيام رخائه وعاش عالةً عليهما أيام شدته . كانت فيه خصلتان تسجلان لصالحه حقاً ، الجمال الشخصي العظيم – كان شبيهاً بأپولو الى أن غيرّه النهم في الطعام والإسراف في الشراب الى باخوس – والاخلاص الحقيقي المكرس للكلاب . لكنّ مما لاريب فيه أنه لو كان هناك في الوجود مايدعى بنادي الإنسان مناظراً لنادي الكلب الاسپانيولي ما كانت لتشفع له تهجئة متفورد بالتاء بدلاً من الدال ، ولا أنسباء من آل متفورد من قلعة برترام ، لحمايته من الازدراء والاحتقار ، ومن الحرمان من الحماية القانونية ، ومن نبذه اجتماعياً ووصمه بالهجين الذي لايليق بالاستمرار في نوعه . لكنه كان إنساناً . لذا لم يكن هناك من شيء يمنعه من الزواج من سيدة عريقة المولد والمنبت ، ومن العيش أكثر من ثمانين حولاً ، ومن امتلاكه أجيالاً

twitter @baghdad_library

متعددة من الكلاب السلوقية والكلاب الاسپانيولية ، ومن إنجاب كريمة له .

لقد فشلت الاستقصاءات في أن تحدد على نحو موثوق ، السنة التي ولد فيها فلاش ، ناهيك عن الشهر أو اليوم ؛ لكن من المحتمل أنه ولد في وقتٍ ما من بواكير سنة ١٨٤٢ . من الممكن كذلك أنه ينحدر مباشرة من الكلب تراي (من مواليد ١٨١٦ تقريباً) الذي لم تحفظ خصائصه لسوء الحظ إلا بوسيلة الشعر غير الموثوقة ، وهي خصائص تثبت أنه كان كلباً اسپانيولياًذا قيمة من نوع الكوكر الأحمر . وهناك مايدعو الى الظن أن فلاش هو ابن ذلك " الاسپانيولي المتبختر " الذي رفض الدكتور متفورد عشرين جنيهاً ثمناً له " بسبب تميّزه الرائع في الحقل ". إن علينا ، وا أسفاه ، أن نثق بالشعر إذا أردنا وصفاً مفصلاً لفلاش نفسه وهو بعد صغير ، إن لونه من ذلك البنيّ الغامق الذي يلتمع في ضوء الشمس " فيتحول بأسره الى ذهب " . عيناه " عينان فزعتان بلون البندق ". أذناه " يتدلى منهما الشعر خصلاً ؛ " اقدامه الرشيقة "مقببّة الحوافي " ، وذيله عريض . ومع مراعاة ماتتطلبه دواعي الوزن والقافية ومبالغات البيان الشعري فإنه لايوجد في ما ذكر هنا إلا ما يتفق مع استحسان نادي الكلب الاسپانيولي . لايمكننا أن نشك في أن فلاش هو كوكر خالص من الفصيلة الحمراء بالصفات الرائعة كلها التي يتميز بها نوعه .

أمضى فلاش الأشهر الأولى من حياته في منزل ريفي في " ثري مايل كروس " بالقرب من بلدة ردنغ . وبما أن أسرة متفورد كانت قد نزلت بهم الأيام الى الحضيض – فليس لديهم إلا خادمة

واحدة – وأغطية الكراسي تصنعها الآنسة متفورد بنفسها وتصنعها من أرخص الأقمشة ؛ وأهم قطعة أثاث هي في مايبدو منضدة كبيرة ؛ وأهم الأمكنة سقيفة لزرع الخضروات – فإن من غير المحتمل أن فلاش كان محاطاً بشيء من الترف من قبيل الوجار المقاوم للمطر ، والمماشي الخرسانية ، ووصيفة أو وصيف لخدمته ، مما يقدم الآن لكلب من نوعه . لكنه ازدهر ؛ فقد استمتع بما فيه من نزعة لعوب في طبعه بأغلب اللذائذ وببعض الإباحات مما هو طبيعي بالنسبة لشبابه وجنسه . صحيح ، كانت الآنسة متفورد تقضي معظم وقتها داخل الكوخ . كان عليها أن تقرأ بصوت مرتفع لوالدها ساعةً بعد أخرى ، ثم عليها أن تلعب معه لعبة من ألعاب الورق ؛ وحين يغفو الأب أخيراً يكون عليها أن تكتب على المنضدة في سقيفة الخضروات في محاولة منها لتسديد قوائم المصروفات المختلفة وتسوية الديون . لكنْ تحل أخيراً اللحظة التي يطول الشوق اليها . إنها تدفع بأوراقها جانباً ، وترشق قبعةً على رأسها ، وتتناول مظلتها وتبدأ سيرها مع كلابهـــا عبر الحقول . ان الكلاب الاسپانيولية متعاطفة بالسليقة ؛ وفلاش ، كما تبرهن حكايته ، كان يتمتع بتقدير مفرط للعواطف الإنسانية . إن مشهد سيدته العزيزة وهي تستنشق الهواء الطلق أخيراً ، وتدع هذا الهواء يعبث بشعرها الأبيض ويضفي الاحمرار على نضارة وجهها الطبيعية فتختفي الغضون من جبينها الضخم ، كل هذا كان يثير فلاش فيثب مرحاً وثباتٍ ينطوي اندفاعها على بعض الود المتعاطف مع سرور السيدة ذاته . واذ كانت هي تغذ الخطى بين الحشائش الطويلة كان هو يقفز هنا وهناك ، فيفرق سجف العشب

twitter @baghdad_library

الخضراء . الكريات الباردة من الندى أو المطر تنهمر بطلٍ من الرشاش الشفاف حول أنفه ؛ التربـــة وهي صلدة هنا ورخوة هناك ، حارة هنا وباردة هناك ، تلسع الخف الرخو لأقدامه في معابثة ودغدغة . ثم ما أعجب الأنواع الشتى من الروائح المحبوكة حبكاً مرهفاً وهي تثير خيشوميه ؛ روائح قوية من التربة ، روائح عذبة من الأزهار ، روائح لا أسماء لها من الأوراق والعلّيق ؛ روائح فاسدة عند عبور الطريق ؛ روائح حادة عند دخول حقول الفاصولياء . ولكنْ وعلى حين غرة جاءت داهمة على جناح الريح رائحة أحد وأقوى ، أشد تمزيقاً من أية رائحة أخرى – رائحة دفعت عبر دماغه مثيرةً ألوف الغرائز ، مطلقةً ملايين الذكريات – رائحة الأرنب ، رائحة الثعلب . فإذ به ينطلق كسمكة استدرجت على عجل خلال الماء بعيداً جداً . لقد نسي سيدته ؛ نسي النوع الإنساني كله . سمع رجالاً يلفهم الغموض يصيحون " سپان ! سپان " سمع سياطاً تقرقع . فانطلق سبّاقاً ، وعدا عدواً عاجلاً . أخيراً وقف حائراً ؛ فالتعويذة فقدت سحرها ، وعاد يهرول ببطء شديد ، وهو يهز ذيله باستخذاء ، عبر الحقل الى حيث وقفت الآنسة متفورد تصيح " فلاش ! فلاش ! " وهي تلوّح بمظلتها . وذات مرةٍ في الأقل جاءه النداء الذي يراوده ملحاحاً ؛ فأبواق الصيد أثارت من الغرائز ماهو أعمق ، واستجلبت من العواطف ماهو أقوى وأشد اندفاعاً فهي تضرب بجذورها الى ماوراء الذاكرة وتطمس العشب والشجر والأرنب الوحشي والأرنب الأليف والثعلب في صيحة واحدة طائشة من نشوة الوجد . لقد أوقدت آلهة الحب شعلتها في عينيه ؛ وسمع بوق الصيد تطلقه ڤينوس .

وقبل أن يشب الجرو فلاش عن الطوق صار أباً .

إن سلوكاً كهذا في سنة ١٨٤٢ ، حتى لو أقدم رجل عليه ، كان سيستدعي من كاتب السيرة مبرراً ما له ؛ أما إذا أقدمت عليه إحدى النساء فما من مبرر سيجدي نفعاً ؛ إن إسمها يمحى من الصحيفة خزياً . لكنّ مجموعة القواعد الأخلاقية للكلاب ، سواءً كانت أحسن من قواعدنا أو أسوأ ، تختلف بالتأكيد عن مجموعة قواعدنا ، وليس هناك في سلوك فلاش بهذا الصدد من شيءٍ يتطلب إسدال الستار عليه الآن ، أو يجعله لايليق بمجتمع أتقى الأتقياء وأشرف العذريين في البلاد آنئذ . على أن هناك دليلاً على أن الشقيق الأكبر للدكتور پوسي كان تواقاً لشرائه . واستنتاجاً مما هو معروف عن شخصية الدكتور پوسي تتضح الشخصية المحتملة لأخيه ، فيمكن القول عندئذٍ بأن ثمة شيئاً جدياً ، صلداً ، في فلاش يَعدُ وعداً حسناً بالابداع في المستقبل مهما كان من طيشٍ فيه حتى وهو جرو . لكن الشهادة الأعمق مغزى عن الطبيعة الجذابة لمواهبه هي أنه حتى مع رغبة السيد پوسي بشرائه فإن الآنسة متفورد رفضت بيعه . وبما أنها كانت بحاجة قصوى الى النقود ، ولاتعرف أية مأساة تاريخية سيجري بها قلمها (*) ، وقد اضطرت الى اللجوء إلى الوسيلة التي تعافها النفس فطلبت عوناً

(*) الآنسة متفورد هي ماري راسل متفورد (١٧٨٧-١٨٥٥) . كان والدها شديد الإسراف في الملاهي والمقامرة الأمر الذي اضطرها الى احتراف الكتابة طلباً للرزق . كانت قد كتبت الشعر بتشجيع من كولردج ، ووضعت مسرحيات تدور حول المآسي التاريخية ، ونشرت كثيراً من القصص القصيرة . وقد راسلت عدداً كبيراً من ادباء عصرها المشهورين نشرت رسائلها فيما بعد بمجلدات . ويرد ذكر فلاش في عدد من تلك الرسائل . (المترجم)

twitter @baghdad_library

من الأصدقاء ، فقد كان الأمر عسيراً عليها إذن أن ترفض المبلغ المعروض من قبل الشقيق الأكبر للدكتور بوسي . إن عشرين جنيهاً كانت قد عرضت بوالد فلاش . كان بوسع الآنسة متفورد أن تطلب عشر جنيهات أو خمسة عشر جنيهاً ثمناً لفلاش . كان هذا مبلغاً محترماً جداً ، مبلغاً رائعاً إذا صار تحت تصرفها . لعلها كانت به ستغيرّ أغطية المقاعد ، أو تجدد مؤونة سقيفة الخضروات ، أو تشتري لنفسها كسوة كاملة ، " فإني لم أشتر قبعة ، أو معطفاً ، أو بردة ، ولا حتى زوجاً من القفازات منذ أربع سنوات " كما كتبت في سنة ١٨٤٢ .

لكن بيع فلاش كان شيئاً لايمكن التفكير به . فقد كان فلاش من تلك المنظومة النادرة من الأشيـــاء التي لايمكن أن ترتبط بالنقود . أليس هو من ذلك النوع الأندر وجوداً الذي يصبح رمزاً لائقاً للتجرد في الصداقة لأنه يمثل ماهو روحاني ويمثل مايتجاوز السعر النقدي ؟ لذا فإنه قد يقدم بهذه الروحية هدية الى صديقة إذا أسعف الحظ بوجودها ، صديقة هي أشبه بالإبنة بالذات ؛ الى صديقة هي طريحة الفراش في عزلة تامة طوال أشهر الصيف في غرفة نوم خلفية في شارع وميول ، صديقة هي ليست إلا أبرز شاعرة في انكلترا ، أليزابيث باريت اللامعة ، المحبوبة ، المقضي عليها بالهلاك . كانت تلك هي الأفكار التي راودت الآنسة متفورد على نحوٍ متكرر وهي تراقب فلاش يتقلب على الأرض ويعدو تحت الشمس ؛ التي راودتها كذلك وهي تجلس بجانب أريكة الآنسة باريت في غرفة نومها في لندن ، غرفتها المعتمة المظلّلة بمتسلقات اللبلاب الأخضر . أجل إن فلاش جدير بالآنسة باريت ؛ والآنسة

باريت جديرة بفلاش . هذه تضحية كبرى ؛ لكنها يجب أن تضحى . وهكذا ، فذات يوم ، ربما في أوائل الصيف في سنة ١٨٤٢ ، شوهد ، كما يظن ، إثنان ملفتان للنظر وهما يتخذان طريقهما في شارع وميول – سيدة قصيرة القامة جداً ، قوية البنية ، رثة اللباس ، ذات وجه أحمر براق وشعر أبيض براق أيضاً ، وهي تقود بسلسلة جرواً مفعماً بالحيوية ، محباً للاستطلاع ، عريق المحتد من النوع الاسپانيولي الذهبي اللون من فصيلة الكوكر . سارا مسافة الشارع كلها تقريباً الى أن توقفا أخيراً عند الباب رقم ٥٠ . وعلى نحوٍ لايخلو من تهيّب ضغطت الآنسة متفورد على الجرس .

ولعله ما من أحدٍ حتى في الوقت الحاضر يقرع الجرس ببابٍ لبيت في شارع وميول إلا متهيباً ، إنه الشارع الأهيب بين شوارع لندن كلها ، الشارع الأخلى من الطابع الشخصي . والحق انه حين كان العالم يبدو آيلاً للانهدام والحضارة تتزلزل أركانها ، لم يكن على المرء إلا أن يذهب الى شارع وميول ؛ أن يذرع بخطاه تلك الجادة ؛ أن يستعرض تلك البيوت ؛ أن يتدبر نسقها الواحد ؛ أن يتملى ستائر النوافذ واتساقها ؛ وأن يقدر بإعجاب مطارق الأبواب النحاسية وانتظامها ؛ أن يراقب القصابين يعرضون اللحوم والطهاة يتسلمونها ؛ أن يخمن دخول القاطنين فيستنتج ما ينشأ عنها من خضوع لشرائع الله والانسان – لم يكن على المرء إلا أن يذهب الى شارع وميول وينهل عميقاً من السلام الذي تنفثه السلطة لكي يتنفس الصعداء حمداً وشكراً ، فبينما سقطت كورنيثيا وانهارت مسينا ، وبينما أطاحت الريح بالتيجان وراحت

twitter @baghdad_library

الامبراطوريات القديمة طعمةً للنيران ، ظل شارع وميول ثابتاً ، ثم ما أن يستدير المرء من هذا الشارع الى شارع أكسفورد حتى ينطلق منه دعاء في القلب ويتفجرّ من الشفتين مبتهلاً ألاّ يعبث بالدرز بين آجرة واحدة وأخرى من شارع وميول كله ، ألا تبلى فيه ستارة واحدة ، ألا ينقطع قصاب عن أن يعرض ، ولا طباخ أن يتسلم ، لحم الخاصرة ، والظهر ، والصدر ، والاضلاع ، من الغنم والبقر أبداً أبداً ، ذلك أنه مادام شارع وميول باقياً فالمدينة بخير .

إن رؤساء الخدم في شارع وميول يسيرون بتثاقل حتى في الوقت الحاضر ؛ أما في صيف ١٨٤٢ فقد كانوا أكثر تباطؤاً . كانت القوانين التي تحكم بزات الخدم آنئذٍ أكثر تشدداً ؛ والطقوس المختلفة كصديرية القطيفة الخضراء لتلميع الفضيات والثوب المخطط والمعطف الأسود ذي الذيل الطويل كذيل السنونو لمن يفتح باب الردهة ، هذه كلها كانت طقوساً تراعى على نحو أدق . من المحتمل إذن أن الآنسة متفورد وفلاش ظلا ينتظران مدة ثلاث دقائق ونصف في الأقل عند عتبة الباب . وأخيراً فتح الباب الذي يحمل الرقم ٥٠ على مصراعيه ؛ واقتيدت الآنسة متفورد وفلاش الى الداخل . كانت الآنسة متفورد زائرة مترددة على المكان . لم تكن هناك من شيء يثير استغرابها في قصر أسرة باريت ، وإن كان فيه ما يثير فيها شعوراً بالكبح . أما التأثير على فلاش فلابد أنه كان صاعقاً الى أقصى حد . لم تكن أقدام فلاش قد حطت ، حتى تلك اللحظة ، في أي بيت سوى ذلك الكوخ في " ثري مايل كروس " . هناك ، الأرض الخشبية عارية ؛ الحصير مهترىء ؛ المقاعد مبتذلة . هنا ما من شيء عارٍ ، أو شيء

مهترىء ، أو شيء مبتذل – هذا أمر يستطيع فلاش أن يراه بلمح البصر . إن المالك ، المستر باريت ، تاجر ثري ؛ وهو ذو عائلة كبيرة من الأبناء والبنات الكبار ، وحاشية من الخدم هي بدورها كبيرة يتناسب عددها مع عدد أفراد الأسرة . بيته مؤثث على طراز أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، مع مسحةٍ ما بلا ريب من تلك الفانتازيا الشرقية التي حدت به حين بنى بيتاً في شروبشاير أن يزينه بالقباب والأهلة من العمارة المغربية . أما هنا في شارع وميول فلا يباح مثل هذا الغلواء ؛ لكنّ لنا أن نفترض أن تلك الغرف المعتمة العالية السقوف كانت حاشدة بالمتكآت وخشب الساج المحفور ؛ إن المناضد مجدولة ، وعليها منمنمات الزينة الدقيقة الصنع ؛ الخناجر والسيوف معلقة على حيطان غامقة بلون النبيذ ؛ الأشياء الغريبة المجلوبة من ملك السيد باريت في الهند الشرقية وضعت في فجوات الجدران ، والسجاد السميك النفيس يكسو الأرض .

ولكن ما أن هرول فلاش خلف الآنسة متفورد ، التي كانت تسير خلف رئيس الخدم ، حتى ازداد عجبه بما شمّ أكثر من عجبه مما رأى . فقد تصاعدت من لولب السلم نفحات ساخنة من لحمٍ يطهى وطيرٍ يقلى وحساءٍ يغلى – روائح كالطعام ذاته تخلب خيشوماً لم يتعود إلا على النكهة البسيطة لما كانت تطبخه خادمتهم الوحيدة في الكوخ من مأكل متواضع . ثمة روائح أخرى كانت تمتزج برائحة الطعام – روائح خشب الأرز والصندل والصاج ؛ شذى أجساد ذكور وأجساد إناث ؛ أجساد خدم وخادمات ؛ روائح معاطف وسراويل ، تنورات وجلابيب ، سجف

twitter @baghdad_library

من سجاد وستائر من مخمل ؛ روائح غبار الفحم والضبـاب ، النبيذ والسيكار . كانت كل غرفة يمر بها فلاش – غرفة للطعام ، غرفة للجلوس ، غرفة للقراءة ، غرفة للنوم – تفوح بما أسهم في الخليط العام ؛ في غضون ذلك ، وإذ كان فلاش يقدم قدماً ويؤخر أخرى ، كانت أقدامه الأربع تمـد وتستبقى بما ينبعث من لذةٍ حسية من السجاد السميك النفيس الذي يلتم بمحبة فوق الأقدام . أخيراً وصلا الى بابٍ مغلق ، الى الخلف من الدار . طُرق طرقاً رقيقاً ، ففتح فتحاً رقيقاً .

غرفة نوم الآنسة باريت – وإنها لكذلك – كانت ، على إجماع القول ، معتمة . فالضياء ، وهو خافت في العادة تحجبه ستارة من الدمقس الأخضر ، يزداد عتمةً في الصيف بسبب معرشات اللبلاب واللوبياء القرمزية واللفلاف والخنجري التي تنمو في حوض النافذة .في البداية لم يستطع فلاش تمييز شيء في الظلمة المخضوضرة الباهتة سوى خمس كريات بيضاء تسطع على نحو غير مفهوم في الفضاء لكنّ رائحة الغرفة هي التي هيمنت عليه مرة أخرى . كان جيشان العواطف ، الذي طغى بطوفانه على أعصاب فلاش وهو يقف لأول مرة في غرفةٍ معدةٍ لنوم مريضةٍ مقعدة في شارع ومبول ويشم فيها رائحة العطر ، شيئاً لايمكن أن يقارن إلا بأحاسيس عالمٍ هبط الى ضريحٍ ما درجةً فدرجة فوجد نفسه هنالك في سرداب للدفن مغطى بالفطريات ، لزج من العفن ، يفوح بروائـح التفسخ والعتق الفاسدة ، ومن حوله تماثيل نصفية رخامية شبه متكاملة تسطع في الهواء ، وكل هذا يشاهده العالم معتماً في ضياء السراج الصغير المتأرجح الذي يحمله بيديه

فيرخيه ويقلّبه ، محدقاً مرةً هنا ومرةً هناك وهو يستكشف الأقبية المدفونة لمدينة مهدمة .

وببطءٍ شديد ، وعلى نحوٍ معتم جداً ، ومع الكثير من التشمم وحك الأرض بالأقدام ، ميّز فلاش بالتدريج الخطوط الخارجية لقطع الأثاث المتعددة . ذلك الشيء الضخم عند النافذة لعله خزانة ، والى جانبها منضدة ذات مجرات كما هو متصور ، وفي وسط الغرفة يتصاعد فوق الأرض شيء كأنه مائدة ذات إطار مدور ؛ ثم الأشكال الغامضة غير المخلّقة التكوين لمقعدٍ ومنضدة . لكنّ كل شيء مموّه . فوق الخزانة تقوم ثلاثة تماثيل نصفية بيضاء ؛ منضدة المجرات يعلوها رف للكتب ؛ رف الكتب مبطن بصوف ناعم نفيس قرمزي اللون ؛ وفوق حوض التغسيل رفوف إكليلية الشكل ؛ وفوق الرفوف التي هي فوق حوض التغسيل يقوم تمثالان نصفيان آخران . ما من شيء في الغرفة هو الشيء بذاته ؛ كل شيءٍ هو شيءٌ آخر . حتى ستارة النافذة هي ليست ستارة بسيطة من الموسلين ؛ إنها قماشة مصبوغة (*) ذات نقوش لقلاع وبواباتٍ وبساتين ، مع عدد من الفلاحين يسيرون . أما المرايا فقد أضفت تشويهاً آخر على الأشياء المشوهة أصلاً بحيث بدا أن هناك عشرة تماثيل نصفية لعشرة شعراء بدلاً من خمسة تماثيل ؛ أربع مناضد بدلاً من منضدتين . وفجأةً حدث ارتباك

(*) كتبت الآنسة باريت تقول : " وضعتُ ستارة شفافة فوق نافذتي المفتوحة أهانني الوالد بتشبيهها بنافذة خلفية لدكان حلويات ، لكنه مع ذلك انفعل بوضوح حين أضاء شعاع الشمس القلعة " يرى البعض أن القلعة ، إلخ ، مصبوغة على مادة معدنية رقيقة ، فيما يرى آخرون أنها ستارة من موسلين مطرزةٌ تطريزاً باذخاً . ليس هناك من وسيلة لحسم هذه المسألة كما يبدو .

twitter @baghdad_library

شنيع أدهى وأمر . فقد رأى فلاش على حين غرة كلباً آخر يحملق به من ثقبٍ في الجدار بعينين لامعتين تسطعان ولسان يتدلى ! توقف مندهشاً . ثم تقدم مروّعاً .

وإذ كان فلاش يمضي هكذا متقدماً ، ثم يتراجع منسحباً ، فإنه لم يسمع غمغمة الكلام وتمتمة الأصوات ، ولم يطرق سمعه إلا الحفيف النائي للريح بين قمم الأشجار . استمر في استقصاءاته على حذر ، وبانفعال ، كمستكشف في غابة يرسل قدمه برفقٍ متردد متسائلاً هل أن هذا الظل أسد أو ذاك الجذر ثعبان سام . على أنه أدرك أخيراً هرجاً ومرجاً وفوضى تنبعث من الأشياء الضخمة من فوقه ؛ ولأنه كان متوتر الأعصاب جراء ماخبره في الساعة الماضية فقد اختبأ مرتعشاً خلف إحدى الستر . انقطعت الأصوات . انغلق باب . توقف هنيهة واحدة ، متحيراً ، متوتراً . عندئذٍ وبلطمة كلطمة نمورٍ مسنونة المخالب هوت عليه الذاكرة . شعر بنفسه وحيداً - مهجوراً . هرع الى الباب . وجده مغلقاً . حك الأرض بأقدامه ، وأصغى . سمع وقع أقدام تنزل . عرف أن هذه هي الخطوات المعهودة لسيدته . توقفت الخطوات . لكن لا - إنها تمضي تستمر في النزول . كانت الآنسة متفورد تنزل السلم بتؤدة ، بتثاقل ، بتردد . ما أن مضت ، وسمع وقع أقدامها يتلاشى ، حتى استبد به الفزع . إن باباً إثر بابٍ يغلق في وجهه إذ نزلت الآنسة متفورد السلم ؛ إنها أبواب تغلق على الحرية ؛ على الحقول ؛ على الأرانب البرية والعشب ؛ على سيدته المعشوقة ، المقدسة - على المرأة العزيزة العجوز التي غسلته وضربته وأطعمته من ماعونها ذاته حين لم يكن لديها الكثير

لتأكله هي نفسها – تغلق على كل شيء كان قد عرفه من السعادة والحب والطيبة الإنسانية ! وهاك الآن ! الباب الخارجي ينصفق . صار فلاش وحيداً . لقد هجرته سيدته .

عندئذٍ دهمته موجة من اليأس والعذاب وأناخ عليه قضاء القدر الذي لا مرد له ولا مهادنة ، فأوقعا فيه من الأذى ما جعله يرفع رأسه ويعوي عالياً . فإذا بصوتٍ يقول : " فلاش " . لم يسمع ذلك . أعاد الصوت الكرة : " فلاش " . جفـــل . كان يظن أنه وحيد . أدار رأسه . هل هناك من شيء حي في الغرفة معه ؟ هل هناك من شيء على الأريكة ؟ وفي أمله الطائش بأن هذا الكائن ، أيّاً كان ، قد يفتح الباب فيهرع وراء الآنسة متفورد ويعثر عليها – وفي أمله بأن هذا الذي يجري ماهو إلا لعبة الاختباء التي اعتادوا على لعبها في سقيفة الخضروات في بيتهم – انطلق فلاش بسرعة البرق الى الأريكة .

قالت الآنسة باريت : " أوه ، فلاش ! " ونظرت اليه للمرة الأولى نظرة فاحصة . نظر فلاش للمرة الأولى إلى السيدة المستلقية على الأريكة ، كلاهما دُهش . الخصل المجعدة الكثة من الشعر تتدلى حول وجه الآنسة باريت ؛ العينان الواسعتان البراقتان تسطعان فيه ؛ الفم الكبير يبتسم . والأنان الكبيرتان تتدليان حول وجه فلاش ؛ عيناه أيضاً واسعتان وبراقتان ؛ وفمه عريض . ثمة شبه بينهما . وما أن حملق أحدهمـــا بالآخر حتى شعر كلاهما :ها أنا هنا – ثم شعر كلاهما : لكني مختلف كثيراً . فوجهها هو الوجه الشاحب المتعب لمريضة مقعدة حرمت من الهواء والضياء والحرية . ووجهه هو الوجه الدافىء المتورد لحيوانٍ فتيّ

twitter @baghdad_library

فيه ما فيه من الغريزة المصحوبة بالحيوية والعافية . هل يمكن ، وهما على طرفي نقيض وإن كانا من الجبلة نفسها ، أن يكونا مخلوقين يكمّل أحدهما ما هو خامد في الآخر ؟ قد ينطبق هذا عليها ؛ أما عليه فلا . فبينهما أوسع بونٍ يمكن أن يفصل بين كائنين . هي تتكلم . هو أبكم . هي إمرأة ؛ هو كلب . وإذ هما متحدان هكذا وثيقاً ، مختلفان هكذا كثيراً ، فقد حملق أحدهما بالآخر . عندئذٍ قفز فلاش بوثبة واحدة الى الأريكة ثم ارتمى حيث سيرتمي الى الأبد – على السجادة عند قدمي الآنسة باريت .

الفصل الثاني

غرفة النوم الخلفية

لم يكن صيف سنة ١٨٤٢ ، كما ينبئنا المؤرخون ، ليختلف كثيراً عن مواسم الصيف الأخرى ، مع هذا فقد كان في حسبان فلاش صيفاً مختلفاً كثيراً ، حتى أنه ارتاب ، بلا شك ، في ما إذا كانت الدنيا هي الدنيا ذاتها . كان صيفاً انقضى في غرفة النوم مع الآنسة باريت ؛ صيفاً صُرِم في لندن ، في قلب الحضارة . لم ير فلاش في بادىء الأمر شيئاً سوى غرفة النوم وأثاثها ، لكن ذلك وحده كان أمراً مشوشاً جداً . وكان تشخيص الأشياء المختلفة التي رآها هناك وتمييزها وتسميتها أمراً مشوشاً جداً . وما أن كاد يألف المناضد والتماثيل النصفية وأحواض الاغتسال – كانت رائحة العطور لاتزال تؤثر بمنخريه تأثيراً رديئاً – حتى حلّ يوم من تلك الأيام النادرة ، الرائعة لكنها ليست عاصفة ، الدافئة لكنها لاتشوي الوجوه ، الجافة لكنها ليست غبراء ، حين يكون بوسع مريضة مقعدة أن تخرج الى الهواء الطلق . لقد حلّ اليوم الذي تستطيع فيه الآنسة باريت أن تخاطر وهي آمنة على نفسها بالمغامرة الكبرى في الخروج مع شقيقتها للتسوق .

أمروا بإحضار المركبة ؛ نهضت الآنسة باريت من أريكتها ؛ هبطت السلم مبرقعةً ، مكممة . ذهب فلاش معها ، طبعاً . وثب الى المركبة بجانبها . وإذ جلس القرفصاء في حضنها فإن أبّهة لندن كلها وهي بأزهى بهائها تفجّرت في عينيه المندهشتين . مضت بهم المركبة في شارع أوكسفورد . رأى فلاش بيوتاً

twitter @baghdad_library

مصنوعة في معظم أجزائها من الزجاج . رأى نوافذ تغمرها أشرطة لامعة ؛ شبابيك تعج بما رُكم فيها من ألوان ساطعة يختلط فيها الوردي بالبنفسجي والأصفر بالأحمر . وقفت المركبة . دخل فلاش أروقة غامضة تغشاها سحب وشراك من الشاش المصبوغ . ونفثت آلاف الأنسام الأثرية من الصين ، من بلاد العرب ، بخورها الواهن في الألياف القصوى لأحاسيسه . وتوهجت على مناضد البيع في الحال أطوال من الحرير اللماع ؛ ثم ترامت على المناضد على نحوٍ أكثر بطئاً أنسجة الكتان الباذخ السميك بألوانه الداكنة . المقصات قرقعت ؛ النقود التمعت . الورق يطوى ؛ والخيط يُربط . ومع الرياش المهتزة ، والشرائط المتموجة ، والخيول الجارية ، وبزات الخدم الصفراء ، والوجوه العابرة ، وكلها تمضي واثبةً ، متراقصةً ، قياماً وقعوداً ، غفا فلاش وقد أترعته الأحاسيس ، فنام وحلم ولم يعلم من بعد ذلك شيئاً حتى حمل من المركبة حملاً وأوصد عليه الباب في شارع وميول مرةً أخرى .

في اليوم التالي ، وقد استمر الجو الرائق ، غامرت الآنسة باريت بالقيام بفعلٍ أجرأ من نزهة اليوم السابق – فقد أباحت لنفسها أن تدفع وهي جالسة في مقعد صحي لاختراق شارع وميول . ومرةً أخرى ذهب فلاش معها . فسمع للمرة الأولى براثنه وهي تدق على أحجار التبليط الصلبة في لندن . وللمرة الأولى دهمت منخريه مجموعة الأشياء بأسرها لشارع في لندن في يوم صيفيٍّ حار . شم روائح تدير الرأس قابعةً في مجاري المياه القذرة ؛ روائح قارصة تنهش أسيجة الحديد إلى حد التآكل ؛ روائح قوية متبخرة تتصاعد من السراديب – روائح هي أكثر

تعقيداً وفساداً ، أقوى تناقضاً وتراكباً ، من أية رائحة شمها في الحقول بالقرب من ردنغ ؛ شم روائح لاتصل إليها طاقة الأنف الانساني ؛ وهكذا فما أن مضى المقعد في طريقه حتى توقف فلاش دهشاً ؛ وقف يشخص مرأى الأشياء ويتذوق نكهة الروائح الى أن سحبته هزة في طوق عنقه . كذلك أذهله وهو يهرول في شارع ومبول خلف مقعد الآنسة باريت مرور الأجساد البشرية . ثمة تنورات تهش على رأسه ؛ ثمة سراويل تتمسّح بجنبيه ؛ وأحياناً تمرق عجلة على مسافة بوصة من أنفه . وعندما مرت شاحنة بقربه هدرت رياح الدمار في أذنيه وهفهفت رياش براثنه . عندئذٍ أقعى فزعاً . امتدت يدٌ برحمتها تسحب السلسلة المربوطة في طوق عنقه ؛ أمسكت به الآنسة باريت امساكاً شديداً وإلا لكان انحدر نحو الهلاك .

أخيراً ، وكان كل عصب في فلاش ينبض وكل حاسة تغني ، وصل متنزه ريجنت . ثم حينما رأى مرةً أخرى ، بعد غياب بداله طويلاً ، مشهد العشب والأزهار والأشجار ، فقد طنت الصيحة القديمة الى الطراد في الحقول طنيناً عميقاً في أذنيه فهرع يعدو كما كان يعدو في الحقول في موطنه . لكنه أحس الآن بهزة شديدة تضغط على حنجرته ؛ رُمي به قعوداً على مؤخرته . تساءل : أليست هذه أشجاراً وعشباً ؟ أليست هذه هي علامات الحرية ؟ ألم يكن يقفز دائماً الى الأمام حالما تبدأ الآنسة متفورد بمشيتها ؟ فيم هو سجين هنا ؟ توقف . لاحظ أن الأزهار هنا مجمّعة على نحوٍ أكثف مما هي عليه في موطنه ؛ إنها تقوم ، نبتةً بجانب نبتة ، متصلبةً في ألواح ضيقة . الألواح تخترقها دروب صلبة سوداء .

twitter @baghdad_library

ثمة رجال يعتمرون قبعات عالية لامعة وهم يسيرون سيراً ينذر بالسوء ذهاباً وإياباً على الدروب . إنه يرتعش عند مشهدهم ملتصقاً بالمقعد . إنه يرضى بحماية السلسلة مسروراً . وهكذا وبعد عددٍ من هذه المشيات دخل في رأسه مفهوم جديد . لقد توصل ، وهو يضع شيئاً بجانب شيء ، الى نتيجةٍ ما . فكلما كانت هناك ألواح زهور فهناك دروب قيرية ؛ وكلما كانت هناك ألواح زهور ودروب قيرية فهناك رجال بقبعات عالية ، لامعة ؛ وكلما كانت هناك ألواح زهور ودروب قيرية ورجال بقبعات عالية لامعة فالكلاب يجب أن تقاد بسلسلة . وبدون أن يتمكن من حل لغز واحد لكلمة واحدة في اللوحة المعلقة على البوابة تعلم فلاش درسه – الكلاب في متنزه ريجنت يجب أن تقاد بسلسلة .

وسرعان ما التصقت بهذه النطفة من المعرفة ، التي ولدت من الخبرة العجيبة المكتسبة في صيف ١٨٤٢ ، نطفة أخرى ؛ إن الكلاب غير متساوين ، الكلاب مختلفون . كان فلاش يختلط ، في " ثري مايل كروس " اختلاطاً لا تحيزّ فيه بكلاب الحانات وبسلوقيّي أصحاب الأراض ؛ لم يكن يعرف فرقاً بينه وبين كلب السمكري . بل من المحتمل أن الأم التي أنجبت طفله لم تكن إلا كلبة هجينة ، أذنها من أحد وذيلها من آخر ، وإن كانت تدعى كلبة اسپانيولية على سبيل المجاملة . لكن فلاش سرعان ما اكتشف أن الكلاب في لندن تقسم الى طبقات مختلفة على نحوٍ صارم . فبعضها كلاب مربوطة بسلاسل ؛ وبعضها كلاب سائبة . بعضها تقوم بنزهاتها في مركبات وتشرب من آنية أرجوانية ؛ بعضها الآخر غير ممشط وغير ذي طوق وتكسب رزقها في مجاري المياه

القذرة . لذلك أخذ فلاش يظن أن الكلاب تختلف ؛ بعضها راقية ، وبعضها دونية ؛ وقد تأكدت شكوكه لأن جملاً من كلام تطرق سمعه وتجري على نحوٍ عابر بحضور الكلاب في شارع ومبول . فالناس يقولون مثلاً : " ألا ترى هذا الحيوان الهزيل ؟ مجرد هجين !... ... أقسم بالله هذا اسپانيولي رائع . من أكرم الدماء في بريطانيا ! ... ... أننا هذا الجرو ليستا مجعدتي الشعر تماماً لسوء الحظ . ... أنظر الى هذه النؤابة في رأس هذا ! "

من أمثال هذه الجمل ، ومن نبرة المدح أو القدح التي تحكى بها ، قرب صناديق البريد أو أمام الحانات العامة حيث يتبادل السعاة تنبؤات الفوز في سباقات الخيل ، علم فلاش قبل أن ينصرم الصيف أنْ لا مساواة بين الكلاب : بعضها راقية ؛ بعضها دونية . فمن أيهما هو إذن ؟ ما أن وصل الى البيت حتى تفحص نفسه بعناية في المرآة . الحمد لله ، إنه كلب أصيل مولداً وسلالة ! رأسه ناعم الملمس ؛ عيناه بارزتان لكنهما غير جاحظتين . أقدامه مريّشة ؛ إنه غريم لأنجب " كوكر " في شارع ومبول . لاحظ باستحسان الإناء الأرجواني الذي منه يشرب – تلك هي امتيازات المقام الرفيع ؛ أحنى رأسه بهدوء مقدماً رقبته لكي يغل من عنقه – تلك هي عقوبات ذلك المقام . حينما لاحظته الآنسة باريت في ذلك الوقت وهو يحدق في المرآة أخطأت الظن . حسبته فيلسوفاً يتأمل في الفرق بين المظهر والمخبر . على النقيض ، إنه أرستقراطي يتفكرّ بمزاياه .

ولكن سرعان ما انقضت أيام الصيف الجميلة ، فبدأت رياح

twitter @baghdad_library

الخريف بالهبوب ؛ عادت الآنسة باريت الى الاستقرار في حياةٍ من العزلة الكاملة في غرفة نومها . تغيرّت حياة فلاش أيضاً . أخذت ثقافته المكتسبة في الهواء الطلق تكمل بثقافة غرفة النوم ، وهذه الثقافة بالنسبة الى كلب بطباع فلاش كانت أقصى ما يمكن اختراعه من تغيير عميق . صارت ترويحاته الوحيدة في الخارج ، وهي قصيرة ورتيبة ، تجري بصحبة ولسن ، وصيفة الآنسة باريت . أما بقية النهار فهو مقيم في موضعه على الأريكة عند قدمي الآنسه باريت . إن غرائزه الطبيعية كلها قد كبحت وأخضعت لمجرى مناقض . فحينما هبّت رياح الخريف في العام الماضي في بركشاير كان فلاش يجري في عدوٍ طائش عبر زغب الأعشاب ؛ أما الآن . فحين تنطلق أصوات اللبلاب نقراً على زجاج النافذة تطلب الآنسة باريت من الوصيفة ولسن أن تهتم بغلق النافذة بإحكام . وحين اصفرّت أوراق اللوبياء القرمزية وعرائش الخنجري في حوض النافذة وأخذت تتساقط سحبت الآنسة باريت ملفعها الهندي تشده حولها شداً . وحين انهمر مطر تشرين على النافذة أوقدت ولسن النار وركمت الفحم . ثم دلف الخريف في الشتاء فأصابت بواكير الضباب لون الهواء بصفرة اليرقان . كانت ولسن ومعها فلاش لايكادان يستطيعان تدبرّ طريقهما الى الصيدلية أو الى صندوق البريد . وحين يعودان فما من شيء يشاهد في الغرفة سوى تماثيل نصفية شاحبة ترسل بصيصاً خافتاً من أعالي الخزانات ؛ أما رسوم الفلاحين والقلعة فتختفي من الستارة ؛ والأصفر الشاحب يملأ زجاج النافذة . شعر فلاش أنه والآنسة باريت يعيشان وحدهما معاً في كهف ذي طنافس

تضيئه النار . حركة المرور تطلق أصواتها الرتيبة في الخارج على الدوام بذبذبة خافتة ؛ وبين حين وحين ينادي صوت أجش من الشارع : " كراسي قديمة وسلال للتصليح " ؛ أحياناً يسمع رنين الموسيقى من الأرغن ، يقترب متعالياً ، ثم يبتعد متلاشياً . لكنْ . مامن صوتٍ من هذه الأصوات يعني الحرية ، أو الفعل ، أو الرياضة . إنّ الريح والمطر ، أيام الخريف العاتية وأيام الشتاء الباردة ، كانت كلها سواء دون أن تعني شيئاً لفلاش باستثناء الدفء والسكون ؛ باستثناء إيقاد المصابيح وسحب الستائر وأنكاء النيران في الموقد .

كان الضغط على أعصاب فلاش في البداية أعظم من أن يحتمل . لم يكن يسعه إلا التراقص حول الغرفة في أيام الخريف العاصفة حين تكون طيور الحجل قد تناثرت فوق زغب العشب . كان يظن أنه يسمع إطلاقات البنادق على جنح النسيم . لم يكن يسعه إلا الركض نحو الباب وقد قف شعر رقبته حين يسمع كلباً يعوي في الخارج . مع هذا فحين تناديه الآنسه باريت ليعود ، حين تضع يدها على طوق رقبته ، لم يكن بوسعه أن ينكر أن شعوراً آخر ، عاجلاً ، متناقضاً ، مؤذياً ، يكبحه لايعرف ماذا يسميه أو لماذا يطيعه . يقعي ساكناً عند قدميها . أن يتطامن ، أن يسيطر على أعنف الغرائز في طبيعته وأن يكبتها – ذلك هو الدرس الأساس لمدرسة غرفة النوم ، وإنها لواحدة من تلك الصعوبات المثقلة بالاحتمالات التي تعلمّ عدداً من العلماء لغة اليونان بأقل مما يلاقيه فلاش صعوبةً ، وكسب القادة عدداً من المعارك بأقل من تضحياته . لكنْ ، كانت الآنسة باريت المعلمة . وكان فلاش يشعر

twitter @baghdad_library

على نحوٍ يتزايد قوةً بمرور الأسابيع أن ثمة آصرة بينهما ، إنشداداً غير مريح وإن كان مثيراً ؛ وهكذا فإن كان سروره هو ألمها ، إنن فسروره لايعود سروراً بل هو ألم مضاعف مثنى وثلاث . وحقيقة هذا الأمر تجري البرهنة عليه في كل يوم . لقد فتح أحدهم الباب وصفر له ليأتي . فلم لا يخرج ؟ إنه يتوق للهواء والرياضة ؛ إن أطرافه تتصلب من جراء امتداده على الأريكة . وهو لم يألف تماماً على الإطلاق رائحة العطر . لكن لا – فمع أن الباب ظل مفتوحاً فهو لن يترك الآنسة باريت . تردد وهو في منتصف الطريق الى الباب ثم عاد الى الأريكة . كتبت الآنسة باريت تقول : " إن فلاشي صديقي – رفيقي – وهو يحبني أكثر مما يحب أشعة الشمس في الخارج . " أما هي نفسها فلا تستطيع خروجاً . إنها مغلولة الى أريكتها . كتبت تقول : " إن طيراً في قفص قصته كقصتي " . أما فلاش ، والدنيا بأسرها حرة بالنسبة إليه ، فقد اختار أن يلغي روائح شارع وميول كلها لكي يستلقي بجانبها .

مع هذا فالرابطة تكاد تنقطع أحياناً . كانت هناك فجوات شاسعة في فهم أحدهما للآخر . كانا أحياناً يستلقيان فيحدّق أحدهما بالآخر بحيرة مطلقة . وتتساءل الآنسة باريت فيم يرتعش فلاش بغتةً وينّن ويجفل ويصغي ؟ إنها لاتسمع شيئاً ؛ ولا ترى شيئاً ؛ وليس هناك من أحدٍ في الغرفة معهما . لاتستطيع أن تخمن أن فولي ، كلب شقيقتها الصغير وهو من فصيلة الملك شارل ، كان قد مرّ أمام الباب ؛ أو أن كاتيلاين كلب الأثر الضخم قد أُعطي عظمة من عظام الغنم ؛ من قبل الساعي في الطابق

التحتي . لكنّ فلاش كان يعرف ؛ ويسمع ؛ ويتعذب بنوبات متناوبة من الشهوة والجشع . ثم ان الآنسة باريت ؛ على ما وهبت من خيال شعري ، لاتستطيع أن تتصور ماذا تعني لفلاش مظلة الوصيفة ولسن البليلة ؛ وأية ذكريات تثير فيه عن الغابات والببغاوات والفيلة البرية التي تضرب بأقدامها الأرض ؛ ولا هي عرفت ، حين عثر السيد كنيون بحبل الجرس ، أن فلاش كان قد سمع آنئذٍ رجالاً سمراً يشتمون في الجبال ؛ وأن الصرخة الصائحة " سپان ! سپان ! " رنت في أذنيه ، وأنه إنما عضّ السيد كنيون بنوبة غضب سلفية مخنوقة .

كان فلاش حائراً كذلك في تفسير انفعالات الآنسة باريت . إنها تستلقي هناك ساعةً بعد أخرى وهي تمرّر يدها فوق صحيفة بيضاء بعودٍ أسود ؛ وإذا بعينيها تمتلآن فجأةً بالدموع ؛ لكنْ لماذا ؟ كانت تكتب لأحد الأصدقاء ، تخاطبه : " آه ياعزيزي السيد هورن . فقد حدث أن تدهورت صحتي ... ثم النفي الإجباري الى توركاي ... الأمر الذي أنزل كابوساً على حياتي الى الأبد وسلبها أشياء أكثر مما أستطيع الكلام عنه هنا ؛ لاتتكلم عن ذلك في أي مكان . أرجوك ، لا تتكلم عن ذلك ياعزيزي السيد هورن . " لكنْ ليس هناك من صوتٍ في الغرفة ، ولا رائحة ، لكي يؤدي ذلك بالآنسة باريت الى البكاء . من ثم تنفجر الآنسة باريت بالضحك وهي لاتزال تهزهز العود الأسود بيدها . لقد رسمتْ " صورة دقيقة جداً ومعبرّة لفلاش ، جعلها من قبيل المزاح شبيهة بنفسي الى حدٍ ما " ، وكتبتْ تحتها أن الصورة إنما " فشلت في أن تكون بديلاً ممتازاً لي لأنها أجدر مني كثيراً بما يمكن أن أكون عليه ."

twitter @baghdad_library

ماذا هناك للضحك منه في صحيفة التلطيخ الأسود التي رفعتها الى فلاش لينظر فيها ؟ إنه لايستطيع أن يشم شيئاً ؛ لايستطيع أن يسمع شيئاً . وليس هناك من أحدٍ في الغرفة معهما . أما الحقيقة فهي أنهما لايستطيعان التفاهم بالكلمات ، وإنها لحقيقة أدت بلا ريب الى كثير من سوء الفهم . مع هذا ألم يؤد ذلك الى ألفةٍ من نوعٍ خاص ؟ فقد كتبت الآنسة باريت مرةً باستنكار بعد مجاهدة دامت على مدى ساعات الصباح : " الكتابة ، الكتابة ، الكتابة ! .. " لعلها كانت تتساءل في نفسها هل تقول الكلمات كل شيء ؟ هل تستطيع الكلمات أن تقول شيئاً ؟ ألا تدمر الكلمات تلك الرموز التي تقبع خارج المدى الذي تطاله ؟ يبدو أن الآنسة باريت قد وجدت ذلك كذلك مرةً واحدة في الأقل . كانت مستلقية ، تفكر ؛ وكانت قد نسيت فلاش كلياً ، تستبد بها أفكارها الحزينة فتتساقط من عينيها الدموع على الوسادة . عندئذٍ ضغط رأسٌ كث الشعر على رأسها فجأةً ؛ شعت عينان واسعتان في عينيها ؛ فجفلت . هل هو فلاش ؟ أم الآله پان [إله الغابات والمزاعي عند الأغريق] ؟ هل أنها لم تعد مريضة مقعدة في شارع ومپول بل هي حورية إغريقية في بستانٍ ما معتم في أركاديا [موئل الرعاة القانعين بما قسم لهم وموطن المسرّة والسكينة والنعيم في جبال اليونان] ؟ هل أن الإله الملتحي نفسه قد ضغط بشفتيه على شفتيها ؟ تحولت الى شخصٍ آخر هنيهةً ؛ إنها حورية وفلاش هو الإله پان . الشمس اتقدت والحب أنكى أواره . لكنْ وعلى فرض أن فلاش كان قادراً على الكلام - أما كان سيقول شيئاً معقولاً ، متجنباً

ترديد السخافات ؟ (*)

هذا وشعر فلاش أيضاً بتململات غريبة تفعل فعلها في باطنه . فهو حين يرى يدي الآنسة باريت النحيفتين ترفعان برهافة علبةً ما فضية أو حلية لؤلؤية من المنضدة المؤطرة تبدو له براثنه الغرائية كأنها تتقلص فيتوق لو انصقلت وتحولت الى عشرة أصابع منفصلة . وحين يسمع صوتها الواطىء يتلفظ بمقاطع من أصوات لا عدّلها فإنه يصبو الى اليوم الذي فيه يخرج هديره الفج أصواتاً مثلها قصيرة بسيطة ، ويكـون لها مثل ذلك المعنى الغامض . وحين يراقب الأصبع ذاته وهو يجوب أبداً في أرجاء صحيفة بيضاء بعودٍ مستقيم فإنه يتوق الى الزمن الذي فيه يسوّد هو أيضاً صحيفة من الصحائف كما تفعل هي . .

مع هذا ، فهل تمكن أن يكتب هو كما تكتب هي ؟ هذا السؤال ، لحسن الحظ ، سؤال سطحي ، ذلك أن الحقيقة تملي علينا أن نقول إنه في عام ١٨٤٢ – ١٨٤٣ لم تكن الآنسة باريت حورية بل إمرأة مقعدة ؛ ولم يكن فلاش شاعراً بل هو كلب إسپانيولي كوكر أحمر ؛ ولم يكن شارع وپول أركاديا بل شارع وپول .

(*) الجملة في النص : " ... سيقول شيئاً معقولاً عن مرض البطاطس في إرلندة ." فقد حدث في أواسط القرن التاسع عشر مرض أصاب البطاطس في إرلندة ، وهي من أكبر منتجيها ، فسبب ذلك مجاعة أدت الى تعديل قانون القمح في انكلترا لتصديره الى هناك . وصار الكلام عن ذلك في المجالس يتردد الى حدّ السخافة فذهبت الجملة مثلاً على الثرثرة الفارغة . المترجم

twitter @baghdad_library

هكذا مضت الساعات الطوال في غرفة النوم الخلفية فلاشيء يميزّها سوى وقع الخطى على السلم ؛ وسوى الصوت النهائي للباب الخارجي يوصد وصوت مكنسة تضرب الأرض وصوت ساعي البريد يقرع الباب . وفي الغرفة يطقطق الفحم ؛ والأضواء والظلال تتنقل فوق جبين كل تمثال من التماثيل النصفية الخمسة الشاحبة الموضوعة على رف الكتب وتتنقل على بطانة الرف من الصوف الناعم النفيس الأحمر . على أنه أحياناً لاتمر الأقدام التي على السلم فتتجاوز الباب ؛ إنها تقف في الخارج . مقبض الباب يشاهد وهو يدور ؛ الباب ينفتح حقاً ؛ شخصٌ يدخل . عندئذٍ يغيرّ الأثاث مظهره على نحوٍ غريبٍ ! وتمور دوامات فائقة من الصوت والرائحة فتأخذ بالانتشار فوراً ! يالها كيف تموج حول أرجل المناضد فتصطدم بالحوافي الحادة لخزان الملابس ! لعلها الوصيفة ولسن تحمل صينية الطعام أو كوب الدواء ؛ أو لعلها إحدى شقيقتي الآنسة باريت – أرابيل أو هنرييتا ؛ أو لعله أحد أشقاء الآنسة باريت السبعة – تشارلس ، صاموئيل ، جورج ، هنري ، ألفريد ، سپتيموس أو أوكتافيوس . لكنّ فلاش يدرك مرةً أو مرتين في الأسبوع أن شيئاً أكثر أهمية يكون على وشك الحدوث . فالسرير ينكرّ بعناية ليظهر كأريكة . والكرسي الوثير يقربّ الى جانبه ؛ والآنسة باريت تتدثر على نحو لائق بالملافع الهندية ؛ وأدوات الزينة تخفى بدقة تامة تحت تمثالي تشوسر وهومير ؛ وفلاش نفسه يمشّط ويفرّش . وفي قرابة الساعة الثانية أو الثالثة من بعد الظهر تطرق الباب طرقة خاصة ، متميزة ، مختلفة ، الآنسة باريت يغلو وجهها الاحمرار وتبتسم وتمد يدها .

وإذ بأحدٍ يدخل عندئذٍ – لعلها العزيزة الآنسة متفورد ، متوردة وبراقة ومثرثرة ، وهي تحمل باقة من زهور الجيرانيوم . لعله السيد كنيون ، الرجل المسن المهذب ، البدين ، المهندم ، يشع حباً للغير ، وهو يحمل كتاباً . أم لعلها السيدة جيمسون ، وهي سيدة على عكس السيد كنيون في مظهرها – سيدة " ذات بشرة بيضاء جداً ، وعينين شاحبتين صافيتين ، وشفتيـــن رفيعتين لا لون فيهما ... وأنف وحنك ينتئان دون سعة . إن لكلٍ من هؤلاء طريقته في التصرف ورائحته ونبرته ولهجته . الآنسه متفورد تثرثر وتتبسط في الكلام ، وهي متقلبة الطباع ، ذات نزعة غير عملية ، ومع هذا فهي ذات جوهر حقيقي ، السيد كنيون متمدين ومهذب ويلثغ قليلاً (*) لأنه كان قد فقد إثنين من أسنانه القواطع ؛ السيدة جيمسون لم تفقد أياً من أسنانها وهي تتحرك بالطريقة التي بها تتكلم على نحوٍ حاد ومتقن .

(*) ثمة عناصرمن المبالغة والخيال هنا . حجتنا الوحيدة هي الآنسة متفورد . فقد ذكر أنها قالت في محادثة مع السيد هورن : " أنت تعلم أن صديقتنا العزيزة لا ترى أحداً سوى أفراد أسرتها ، وبعض الآخرين . ورأيها حسن جداً بمهارة السيد – في القراءة ، بالإضافة الى ذوقه الرفيع ، وهي تجعله يقرأ لها قصائدها الجديدة بصوت مرتفع ... وهكذا يقف السيد – على سجادة الموقد ويرفع المسودة بيديه ، كما يرفع من صوته ، وصديقتنا العزيزة تستلقي مزملةً بالملافع الهندية في أريكتها ، والخصل الطويلة السوداء من شعرها تتدلى من رأسها المنحني ، وكلها إنتباه . وبما أن السيد – العزيز قد فقد أحد أنيابه – ليس نابأ بالضبط بل إحدى الثنايا – وهذا كما تعرف يسبب عيباً في النطق ... يؤدي الى عدم وضوح محبب ، الى ترقيق غامض في المقاطع فينوب بعضها في بعض ، بحيث أن كلمة الصمت تؤول الى الثمت فتبدو إحداهما أشبه بالأخرى حقاً ... " ليس هناك من شك أن السيد – هو السيد كنيون . إنما يتبـــع

twitter @baghdad_library

أما فلاش الذي أقعى عند قدمي الآنسة باريت فيدع الأصوات تترقرق من فوقه ، ساعةً بعد ساعةٍ . الزوار يواصلون الحديث ، يواصلون الكلام . الآنسة باريت تضحك ، وتؤشر بيديها ، وتطلق علامات التعجب ، وتتنهّد أيضاً ، وتضحك مرةً ثانية . وأخيراً يحل شيء من السكوت المتقطع ، الأمر الذي يرتاح إليه فلاش كثيراً ، وهذا حتى خلال تدفق الكلمات من فم الآنسة متفورد . عجباً هل حانت الساعة السابعة ؟ إنها جاءت منذ الظهر ! يجب أن تهرع إذن لكي تلحق بقطارها . السيد كنيون يغلق كتابه - كان يقرأ بصوت مرتفع - ويقف وظهره الى النار ؛ السيدة جيمسون تضغط بحركة حادة ، فظة ، على كل إصبع من أصابع قفازها لتدخله فيه . وفلاش يربّت عليه من هذا وتسحب أذنه من ذاك . مراسم التوديع تطول على نحو لايطاق ؛ أخيراً تنهض السيدة جيمسون والسيد كنيون بل حتى الآنسة متفورد ،

قضت الضرورة بوضع الفراغ بسبب الحساسية الغريبة عند الفكتوريين بشأن الأسنان . لكنّ ثمة مسائل إكثر أهمية تتصل بالأمر ولها تأثيرها في الأدب الانكليزي . فالآنسة باريت اتهمت طويلاً بأنها مصابة بخلل في الأذن ، والآنسة متفورد تفيد بأنه ينبغي اتهام السيد كنيون بأنه مصاب بخلل في الأسنان . من جهة أخرى تفيد الآنسة باريت نفسها أن قوافيها لاعلاقة لها بنقص في الأسنان عنده أو عيب في السمع عندها . كتبت تقول : " أوليت اهتماماً كبيراً جداً ، أكثر مما كنت سأولي الى القافية الصحيحة ، الى مسألة القوافي بحيث قررت أن أخاطر ببعض التجارب عامدةً متعمدةً . ومن هنا وضعت قافية angels مع Candles او heaven مع unbelieving و islands مع Silence - عامدةً متعمدةً . إن الأمر متروك حسمه بالطبع الى المختصين ، ولكن من يدرس شخصية السيدة براوننغ وأعمالها يميل الى الاعتقاد بأنها تخالف عن عمد شتى القواعد سواءً في الفن أو في الحب ، وذلك يدينها ببعض التواطؤ في تهمة تطوير الشعر الحديث .

فيلقون تحية الوداع ، وهم إما تذكروا شيئاً أو قد فقدوا شيئاً أو قد وجدوا شيئاً ، ويكونون قد وصلوا الباب ففتحوه وخرجوا أخيراً – والحمد لله .

رمت الآنسة باريت بنفسها على وسائدها ، بيضاء الوجه جداً ، متعبة جداً . زحف فلاش مقترباً منها . كانا لحسن الحظ وحدهما مرةً أخرى . لكنّ الزائرين كان قد طال مكوثهم حتى أوشك وقت العشاء أن يحين . بدأت الروائح تفوح من الطابق التحتي . الوصيفة ولسن عند الباب تحمل عشاء الآنسة باريت في صينية . وضعت على المائدة بجانبها ورفعت الأغطية . ولكنْ ، ومن جراء ارتداء الملابس وخلعهاوتبادل الكلام ، ومن جراء حرارة الغرفة والانفعال الناشيء عن توديع الزائرين كانت الآنسة باريت متعبة فلا شهية لها للطعام . تنهدت حين رأت في صحن عشائها قطعة اللحم الريانة من الغنم أو قطعة الجناح من طير الحجل أو الدجاج . وطالما كانت ولسن في الغرفة فهي تعبث بسكينها وشوكتها . ولكن ما أن تغلق ولسن الباب من خلفها وتكون الآنسة باريت وحدها مع فلاش حتى تتنهد . إنها ترفع شوكتها . ثمة جناح كامل من دجاجة معلق بالشوكة . فلاش يتقدم . الآنسة باريت تهز رأسها استحساناً . فلاش يزيح الجناح من الشوكة بلطف شديد وذكاء حانق دون أن يسقط شيئاً ويزدرده فلا يترك له أثراً . ثم ازدرد نصف صحن من حلوى الرز والحليب على الشاكلة ذاتها . كان تعاون فلاش في هذا الصدد باهراً وفعالاً الى اقصى الحدود . أقعى كعادته عند قدمي الآنسة باريت ، نائماً في ظاهر الحال ، والآنسة باريت تستلقي وعليها مخائل الراحة واسترداد

twitter @baghdad_library

النشاط ، وعليها ذلك المظهر لمن تناول عشاءً ممتازاً ، حين توقفت على السلم ، مرةً أخرى ، خطوة أثقل وقعاً ، وأكثر رويّة ، وأشد حزماً من أية خطوة أخرى ؛ ثم قرعت الباب على نحوٍ رصين بطرقةٍ لم تكن نقرةً للاستفسار بقدر ما هي مطالبة بالدخول ؛ انفتح الباب فدخل رجل مسن هو من أشأم المسنين وأفظعهم – السيد باريت بقضه وقضيضه . وفي الحال اتجه ببصره نحو الصينية . هل أن الوجبة قد أكلت ؟ هل أن أو امره قد أطيعت ؟ أجل ، فالصحون فارغة . وعندها استرخى السيد باريت مظهراً استحسانه لطاعة إبنته ، وهو يلقي بنفسه ثقيلاً على المقعد الى جانبها . عندما تقرب ذلك البدن القائم من فلاش سرت في عموده الفقري رعشات الرعب والفزع . فعلى هذه الشاكلة يستلقي الرجل المتوحش في الزهور وهو يرتعد حين يقصف الرعد فيسمع صوت الرب . عندئذٍ صفرت ولسن ؛ انسل فلاش كمن اقترف ذنباً ، كأن السيد باريت يستطيع أن يقرأ أفكاره وهي أفكار شريرة ، وخرج من الغرفة مخالساً وهرع نازلاً الى الطابق الأرضي . ثمة قوة قد دهمت غرفة النوم وهي قوة يخافها ؛ قوة لاحول له ولا طول في مقاومتها . كان فلاش قد اندفع ذات مرة الى داخل الغرفة على غير توقع ، فوجد السيد باريت جاثياً على ركبتيه يصلي بجانب إبنته .

الفصل الثالث

الرجـــــل المقنـــــع

إن ثقافةً كثقافة غرفة النوم الخلفية في شارع وميول كانت ستحدث أثرها حتى في كلبٍ اعتيادي . فكيف بفلاش وهو ليس كلباً اعتيادياً . إنه مفعم بالحيوية ، ومع هذا فإن سليقته تأملية ؛ إنه كلبيّ النزوع لكنه حساس جداً نحو العواطف الإنسانية أيضاً . لقد أثر جو غرفة النوم على كلبٍ كهذا بقوة فريدة . إننا لانستطيع أن نؤاخذ فلاش إن تهذبت حساسيته الى حدٍ ما على حساب خواصه الأشد قوةً . كان من الطبيعي ، وهو يستلقي موسّد الرأس على معجم يوناني ، أن يميل الى النفرة من العـــواء والعض ؛ وأن يميل الى تفضيل سكينة القط على خشونة الكلب ؛ والى تفضيل التعاطف الإنساني على كليهما . كما أن الآنسة باريت قد فعلت ما في وسعها لصقل قواه وتهذيبها . تناولت ذات مرة قيثارة من النافذة وسألته وهي تضعها بجانبه هل القيثارة ، التي انطلقت منها الموسيقى ، شيئاً حياً بذاته ؟ نظر وأصغى ؛ ويبدو أنه تأمل هنيهةً وقد ساوره الشك ثم قرر أنها ليست كذلك . ثم جعلته يقف معها أمام المرآة وسألته لماذا يعوي ويرتعش ؟ أليس الكلب البنيّ الصغير قبالته ؟ لكنّ ما هي " ذات المرء " ؟ هل هي الشيء الذي يراه الناس ؟ أم هي الشيء الذي هو ذات المرء ؟ تدبّر فلاش ذلك السؤال أيضاً ، وإذ لم يتمكن من حل معضلة الواقع فقد حشر نفسه ملتصقاً بالآنسة باريت ولثمها " على نحوٍ معبر " . هذا بالذات شيء واقعي على أية حال .

twitter @baghdad_library

كان فلاش ، وهو لايزال مستجداً في معضلات كهذه ومحن عاطفية كبرى تثير جهازه العصبي ، قد نزل الى الطابق التحتي ، ولانستغرب من وجود شيء ما في مشيته وتصرفه ، كمسحة من الغطرسة والتعالي ، شيء أدى الى إثارة غضب كاتيلاين ، كلب الأثر الكوبيّ المتوحش ، فانقض عليه وعضه وجعله يعود صاعداً الى الآنسة باريت وهو يعوي طلباً للعطف . فاستنتجت أن فلاش " ليس بطلاً " ؛ لكنّ لماذا لم يكن بطلاً ؟ ألم يكن ذلك بسببها الى حدٍ ما ؟ إنها من الإنصاف بحيث أدركت أن فلاش كان قد ضحّى بشجاعته من أجلها ، وانه من أجلها كان قد ضحّى بالشمس والهواء . إن في هذا الادراك السليم المشوب بالتوتر العصبي ما فيه من ثغرات ، بلا ريب – كانت الآنسة باريت قد أبدت كثيراً من الاعتذارات عندما وثب فلاش على السيد كنيون وعضه لأنه عثر بحبل الجرس ؛ وكان من المؤذي لها أن تسمع أنينه المثير للأشفاق طيلة الليل لأنه لم يسمح له بالنوم في سريرها ؛ وحين رفض أن يأكل إلا إذا أطعمته هي ؛ لكنها كانت ترحب بما يصيبها من ذلك وتتقبل المضايقة لأن فلاش يحبها على أية حال . لقد رفض الهواء والشمس من أجلها . سألت السيد هورن : " أليس فلاش جديراً بالمحبة ؟ " ومهما كان جواب السيد هورن فإنها كانت واثقة من الجواب . إنها تحب فلاش ، وفلاش جدير بحبها .

ويبدو أنه ما كان لشيء أن يحدث فيقطع هذه الأصرة – لكأن السنين لن تؤدي إلا الى رصّ الرابطة وترسيخها ؛ لكأن تلك السنين ستمضي على هذا المنوال طوال حياتهما كما سنتها

الطبيعة لهما . ولم يعد فلاش جرواً ؛ إنه كلب في الرابعة أو الخامسة ؛ إنه كلب في عنفوان حياته . والآنسة باريت لما تزل مستلقية على أريكتها في شارع ومپول وفلاش لما يزل عند قدميها . إن حياة الآنسة باريت هي حياة " طير في قفصه " . إنها أحياناً تلتزم الدار أسابيع متواصلة ، وحين تغادر الدار فإنما تغادرها ساعة واحدة أو ساعتين ، للذهاب الى مخزنٍ في المركبة ، أو لتدفع الى متنزه ريجنت وهي في المقعد الصحي . إن آل باريت لا يغادرون لندن أبداً . فالسيد باريت ، والأشقاء السبعة ، والشقيقتان ، ورئيس الخدم ، والوصيفة ولسن ، والخادمات ، وكاتيلاين ، وفولي ، والآنسة باريت ، وفلاش ، استمروا جميعاً يعيشون في رقم ٥٠ شارع ومپول ، يأكلون في غرفة الطعام ، ينامون في غرف النوم ، يدخنون في المكتبة ، يطهون في المطبخ ، يحملون أواني الماء الحار وينزحون الفضلات من أول السنة الى آخرها . وقد اتسخت أغطية المقاعد قليلاً ؛ وبلي السجاد قليلاً ؛ وتجمع غبار الفحم ، والطين ، والسخام ، والضباب ، والأبخرة المنبعثة من دخان السيجار ومن النبيذ واللحوم ، في الصدوع ، في الشقوق ، في الأقمشة ، على أعالي إطارات الصور ، وفي حفائر النقوش . أما اللبلاب المتسلق على نافذة غرفة نوم الآنسة باريت فقد ازدهر ؛ أضحت سجفه الخضر أكثف كثيراً ، وفي الصيف تهيج نباتات الخنجري واللوبياء القرمزية كلها في حوض النافذة هياجاً .

إنما في إحدى الليالي من أوائل كانون الثاني ١٨٤٥ طرق ساعي البريد الباب . وسقطت الرسائل في الصندوق كالعادة .

twitter @baghdad_library

فنزلت ولسن تجلب الرسائل كالعادة . كل شيء يجري كالعادة – ففي كل ليلةٍ يطرق ساعي البريد الباب ، وفي كل ليلة تجلب ولسن الرسائل ، وفي كل ليلة ثمة رسالة الى الآنسة باريت . لكن ، كانت الرسالة في هذه الليلة ليست رسالة معتادة ؛ إنها رسالة مختلفة . رأى فلاش ذلك حتى قبل أن يُفض المغلف . عرف بالأمر من الطريقة التي بها تناولت الآنسة باريت الرسالة ؛ التي بها قلّبتها ؛ التي بها نظرت في إسمها المكتوب بحروف بارزة قوية ، منفصلة . عرف بالأمر من الرعشة التي تستعصي على الوصف في أناملها ، من التهور الذي به فضت المغلف ، من الاستغراق الذي به قرأت . راقبها تقرأ . وحين كانت تقرأ سمع فلاش جرساً أيقظه من سباته ، كما يحدث حين نسمع ونحن في غفوة الوسن جرساً ما يقرع من خلال ضجيج الشارع فنعرف أنه موجّه إلينا ، يقرع على نحوٍ مفزع وإن بخفوت ، كما لو ان أحداً ما نائياً يحاول أن يوقظنا بنذيرٍ عن حريقٍ ، أو سرقة ، أو خطر يهدد أمننا ، فنجفل فزعين قبل أن نفيق – هكذا سمع فلاش ، حين كانت الآنسة باريت تقرأ الصحيفة الصغيرة المرقطة ، جرساً ينذره بخطرٍ ما ؛ يهدد أمنه ويحذره ألا ينام بعد الآن . قرأت الآنسة باريت الرسالة على عجل ؛ وقرأت الرسالة ببطء ؛ أعادتها بعناية الى مغلفها . إنها أيضاً لن تنام .

ومرةً أخرى ، بعد بضع ليالٍ جاءت تلك الرسالة على صينية ولسن . ومرة أخرى قرئت على عجل ، قرئت ببطء ، قرئت مراراً وتكراراً . ثم حفظت بعناية ، لا في المجر مع الصحائف الضخمة لرسائل الآنسة متفورد ، بل حفظت بمفردها . والآن دفع فلاش

الثمن الكامل للسنين الطويلة من الإدراك المتراكم وهو يقعي على الطنافس عند قدمي الآنسة باريت . إن بوسعه أن يقرأ علامات لايستطيع أحد آخر حتى رؤيتها . إن بوسعه أن يحزر من لمسة أنامل الآنسة باريت أنها كانت تنتظر شيئاً واحداً فقط – تنتظر طرقة ساعي البريد ، تنتظر الرسالة على الصينية . قد تكون الآنسة باريت حينذاك منهمكة بمداعبة فلاش بضربات خفيفة ، اعتيادية ؛ وبغتةً – هاهي الدقّة – فإذا بأناملها تتقلص ؛ وإذ به ينسحق في سندان حين تصعد ولسن السلم . عندئذٍ تتناول هي الرسالة ، أما هو فيترك وينسى .

على أن فلاش يحاجج نفسه قائلاً فيم التخوف طالما لايوجد تغيير في حياة الآنسة باريت ؟ ولم يكن هناك من تغيير . لم يأت زوار جدد . السيد كنيون يأتي كالعادة ؛ الآنسة متفورد تأتي كالعادة . الاشقاء والشقيقتان يأتون ؛ وفي المساء يأتي السيد باريت . إنهم لا يلاحظون شيئاً ؛ لا يرتابون بشيء . وهكذا يهدىء من روعه ويحاول أن يصدق ، وقد مرّت بضع ليالٍ بلا رسالة ، بأن العدو قد ذهب . إنه يتخيل أن رجلاً يرتدي عبـــاءة ، شخصاً مقنعاً ، ملثماً ، قد مرّ كنشالٍ هزهز الباب فلما وجدها محكمة الغلق انسل منهزماً . حاول فلاش أن يوحي لنفسه الاعتقاد بأن الخطر قد زال . بأن الرجل قد ولىّ . عندئذٍ جاءت الرسالة كرةً أخرى .

وما أن أخذت الرسائل تترى بانتظام ، ليلةً بعد ليلةٍ ، حتى بدأ فلاش يلاحظ إمارات التغيير في الآنسة باريت نفسها . فلأول مرة في تجربته صارت سيدته سريعة التهيج وقلقة . إنها

twitter @baghdad_library

لاتستطيع أن تقرأ ولا تستطيع أن تكتب . إنها تقف أمام النافذة وتنظر الى الخارج . كانت تستنطق الوصيفة ولسن بتوق عن الجو - هل أن الريح لم تزل شرقية ؟ هل هناك علامة من علامات الربيع في المتنزه الآن ؟ وولسن تجيب : كلا ، والريح لم تزل شرقية قاسية . شعر فلاش أن الآنسة باريت كانت ترتاح وتنزعج معاً وفي الوقت ذاته ، كانت تسعل . كانت تشكو من التوعك - لكنها لم تكن مريضة الى الحد الذي تكون فيه عادةً حين تكون الريح شرقية . ثم انها حين تكون بمفردها فهي تقرأ مرة أخرى رسالة الليلة الماضية . كانت أطول الرسائل التي وصلتها حتى الآن . كانت رسالة ذات صفحات متعددة ، مليئة كل الأمتلاء ، قاتمة الترقيط ، تتناثر فيها رموز هيروغليفية صغيرة ، غريبة ، ومتقطعة . استطاع فلاش أن يرى هذا القدر من موقعه عند قدميها . لكنه لم يستطع أن يتبين معنى الكلمات التي كانت الآنسة باريت تغمغم بها لنفسها . إنما استطاع أن يستشف انفعالها حين بلغت نهاية الصحيفة وقرأت جهاراً (وإن على نحوٍ غير مفهوم له) " هل تظنين أنني سأراك بعد شهرين ؟ بعد ثلاثة أشهر ؟ "

عندئذٍ تناولت قلمها ومررّته سراعاً وبانفعال على صحيفة إثر أخرى . لكنْ ماذا تعني هذه الكلمات الصغيرة التي تكتبها الآنسة باريت ؟ " نيسان قادم . وسيأتي أيّار وحزيران إذا حيينا لنشهد ذلك ، ولعلنا نحيا على أية حال ... سأراك بلاشك حين ينعشني المناخ الدافىء قليلاً ... لكني سأخافك في البداية - وإن كنتُ لا أخاف وأنا أكتب هذا .

أنت پاراسلسوس(*) ، وأنا إمرأة متوحدة منعزلة عن العالم ، وقد تحطمت أعصابها كالمعلقة على خشبة التعذيب ، وهي الآن تتدلى مرتخيةً وترتعش لأي سبب مهما كان ."

لم يكن بوسع فلاش أن يقرأ ماكانت تكتبه من فوق رأسه بمسافة بوصة واحدة أو بوصتين . لكنه عرف ، كأنه يستطيع أن يقرأ تماماً كل كلمة تكتبها ، الى أيّ مدى كان انفعال سيدته غريباً وهي تكتب ؛ عرف بأنواع الرغبات المتناقضة التي تهزها – بأن نيسان قد يأتي ؛ بأن نيسان قد لايأتي ؛ بأنها قد ترى هذا الرجل المجهول على الفور ، وقد لاتراه على الإطلاق . إن فلاش يرتعش أيضاً كما ترتعش هي لأي سبب مهما كان . والأيام تمضي على نحو يثير الندامة . الريح تضرب الستارة . الشمس تبيّض التماثيل النصفية . طيرٌ يغرد في الأسطبل . رجال ينادون في شارع ومپول لبيع زهور قطفت للتو . فلاش يعرف أن كل هذه الأصوات تعني أن نيسان قادم وأيار وحزيران – ما من شيء يمكنه أن يوقف اقتراب ذلك الربيع الفظيع . إذ ما الذي سيأتي مع

(*) Paracelsus : كيميائي وطبيب سويسري (١٤٩٣ – ١٥٤١) اشتهر بقدرته الشفائية واهتمامه بالخيمياء والتنجيم والتصوف وبخروجه على أساليب الطب التقليدية . كان يتمتع بأصالة ذهنية متميزة سابقاً لزمانه لما قام به من تحسينات مهمة في مجال الصيدلة والعلاج . وقد نظم روبرت براوننغ قصيدة درامية بعنوان " پاراسلوس " في سنة ١٨٣٥ وكانت بداية شهرته ، وقد جعل من هذا الطبيب فيها رمزاًلاستقصاء الشاعر لعمليات الخيال الأبداعي وبوجه خاص الصراع بين الحب (نسيان الذات) والمعرفة (توكيد الذات) في ذهن الفنان ، فلقيت هذه القصيدة نجاحاً كبيراً . من هنا الإشارة إليه في رسالة الشاعرة باريت ومخاطبته بـ " پاراسلوس " المترجم

twitter @baghdad_library

الربيع ؟ فزعٌ من نوعٍ ما – رعب من نوعٍ ما – شيءٌ تهلع منه الآنسة باريت ، ويهلع منه فلاش أيضاً . لقد جفل الآن لسماعه وقع خطوة من الخطى . لكنها لم تكن سوى هنرييتا . ثم جاءت طرقة على الباب . لم يكن الطارق سوى السيد كنيون . وهكذا مضى نيسان ؛ ومضت الأيام العشرون الإولى من أيار . بعدئذٍ ، وفي ٢١ أيار ، عرف فلاش أن اليوم ذاته قد حل . ذلك أنه في يوم الثلاثاء ، الحادي والعشرين من أيار ، نظرت الآنسه باريت بتمحيص في المرآة ؛ هندمت نفسها بتأنق في ملافعها الهندية ؛ طلبت من الوصيفة هذا الشيء وذاك ؛ ثم جلست منتصبة بين وسائدها . أقعى فلاش متوتراً عند قدميها . انتظرا وهما بمفردهما . أخيراً دقت ساعة كنيسة مريلبون الثانية ؛ فانتظرا . ثم دقت ساعة كنيسة مريلبون دقة واحدة – كانت تدق الثانية والنصف ؛ ما أن تلاشت هذه الدقة الواحدة حتى سُمعت نقرة جسورة على الباب الخارجي . امتقع وجه الآنسة باريت ؛ هجعت ساكنةً بلا حراك . هجع فلاش ساكناً أيضاً . وأتى صاعداً وقع القدم المفزع الذي لا يرحم ؛ عرف فلاش أنْ قد أتى صاعداً شخصٌ منتصف الليل الملثم الشرير – الرجل المقنع . إن يده الآن على الباب . دار المقبض . هاهو واقف في الغرفة .

قالت الوصيفة ولسن : " السيد براوننغ " .

رأى فلاش ، وكان يراقب الآنسة باريت ، أن الدم قد هجم على وجهها ؛ رأى عينيها تبرقان وشفتيها تنفرجان .

هتفت تقول : " سيد براوننغ ! "

دخل السيد براوننغ يرسل خطاه عبر الغرفة وهو يبرم قفازه الأصفر(*) بين يديه ، وتطرف عيناه ، وكان في أحسن هندام ، وعليه مخائل السيطرة والفظاظة . أمسك بيد الآنسة باريت ، وألقى بنفسه في المقعد قرب الأريكة الى جانبها . بدءا يتكلمان في الحال .

أما ما كان فظيعاً بالنسبة الى فلاش وهما يتكلمان فهو وحدانيته . كان يشعر في ما مضى أنه والآنسة باريت معاً على الدوام ، في كهفٍ تضيئه النار . الكهف الآن لم تعد تضيئه النار ؛ إنه مظلم ورطب ؛ والآنسة باريت في خارجه . أجال نظره من حوله . كل شيء قد تغيّر . رف الكتب ، والتماثيل النصفية الخمسة – إنها لم تعد أرباباً تشع وداً وهي تترأس المكان على نحوٍ مستحسن – كل ذلك صار معادياً ، قاسياً . نقل موقعه عند قدمي الآنسة باريت . لم تنتبه الى ذلك ، أنّ طويلاً . لم يسمعاه . أخيراً أقعى ساكناً يعاني من عذاب متوتر ، صامت . واستمر الكلام ؛ لكنه كلام لا يتدفق ولا يترقرق كما يندفق ويترقرق الكلام عادةً . الكلمات تقفز وتهتز . ثم تتوقف فتقفز مرةً أخرى . لم يكن فلاش قد سمع قط هذا الرنين في صوت الآنسة باريت من قبل – ولا هذه القوة ، ولا هذه الإثارة . خداها يتوردان كما لم يرهما

(*) ورد في كتاب " حياة براوننغ " بقلم السيدة أور أنه كان يرتدي قفازات ليمونية اللون . وتقول السيدة بريدل – فوكس ، وقد التقت به سنة ١٨٣٥ – ١٨٣٦ : " كان آنئذٍ رشيقاً ، أسمر ، وسيماً جداً ، وهل لي أن أنوه أنه كان متصابياً بعض الشيء في تأنقه ، مدمناً على ارتداء القفازات النفيسة من جلود الجدي اللينة الليمونية اللون وما أشبه من أشياء ."

twitter @baghdad_library

يتوردان قط ؛ عيناها الواسعتان تضطرمان كما لم يرهما تضطرمان قط . ودقت الساعة الرابعة ؛ مع هذا فهما يتكلمان . ثم دقت الرابعة والنصف . عند هذه الدقة وثب السيد براوننغ ناهضاً . ثمة حسم فظيع وإقدام مريع في كل حركة من حركاته . وما هي إلا لحظة واحدة حتى صفق يده بيد الآنسة باريت ؛ تناول قبعته وقفازه ؛ وألقى السلام . سمعاه يهرع نازلاً السلم . انصفقت الباب بعنفٍ خلفه . لقد ذهب .

لكن الآنسة باريت لم تستلق وظهرها على وسائدها كما تفعل حين يغادرها السيد كنيون أو الآنسة متفورد . إنها الآن لاتزال تجلس منتصبةً ؛ عيناها لاتزالان تتقدان ؛ خدّاها لايزالان يتوهجان ؛ لكأنها لاتزال تشعر أن السيد براوننغ موجود معها . لمسها فلاش . تذكرته وقد عراها إجفال . ربّتت على رأسه خفيفاً وبجذل . وسلطت عليه ، باسمةً ، أغرب النظرات – كأنها تتمنى لو يستطيع نطقاً – كأنها تتوقعه أن يشعر هو أيضاً كما تشعر هي . عندئذٍ ضحكت ، بإشفاق ؛ كأن من الخطل ألاّ يستطيع فلاش ، فلاش المسكين ، أن يشعر بشيء مما تشعر به ؛ وألاّ يستطيع أن يعرف شيئاً مما تعرفه . لم يحدث قط أن فرّقت بينهما مثل هذه الفيافي من المسافة الموحشة . إنه يقعي في مكانه منبوذاً ؛ شعر كأنه غير موجود في المكان . لم تعد الآنسة باريت تتذكر وجوده .

في تلك الليلة أكلت الآنسة باريت دجاجها حتى العظم . لم تلق إلى فلاش بنتفة من بطاطس أو بجذاذة من جلد . وحين جاء السيد باريت كعادته دهش فلاش من بلادته . لقد جلس في المقعد نفسه الذي جلس فيه الرجل . وأرخى رأسه على الطنافس نفسها

التي أرخى عليها الرجل رأسه ، ومع هذا لم يلاحظ شيئاً . دهش فلاش وهو يتساءل : " ألا تدري من كان يجلس في هذا المقعد ؟ ألا تستطيع أن تشمه ؟ " ذلك أنه بالنسبة الى فلاش كانت الغرفة بأسرها لازال تفوح بالحضور الذي تركه السيد براوننغ . إن الهواء المثقل به يمرق متجاوزاً رف الكتب ، فيدور ويلتوي حول رؤوس التماثيل النصفية الخمسة الشاحبة . لكن الرجل البدين جلس الى جانب إبنته باستغراق ذاتيّ تام . لم يلاحظ شيئاً . لم يرتب بشيء . ذهل فلاش من بلادته فانسل من جانبه مغادراً الغرفة .

وبدأت أسرة الآنسة باريت ، رغم الغشاوة المدهشة التي أصابتها ، تلاحظ تغييراً فيها على مرّ الأسابيع . فهي تترك غرفتها وتنزل للجلوس في ردهة الاستقبال . ثم انها أخذت تفعل مالم تفعله أياماً طويلة - فقد مشت على قدميها بالفعل الى حد البوابة في ميدان دفنشاير بصحبة شقيقتها . عجب أصدقاؤها وأسرتها من التحسن الذي طرأ عليها . لكنّ فلاش وحده هو الذي عرف مصدر قوتها - مصدرها الرجل الأسمر الذي يجلس في المقعد . إنه يأتي المرة تلو المرة . في البداية كان يأتي مرةً واحدة في الأسبوع ؛ ثم صارت مرتين في الأسبوع . وهو يأتي عصراً ويغادر عصراً على الدوام . والآنسة باريت تستقبله بمفردها دائماً . أما الأيام التي لا يأتي فيها فرسائله تأتي . وعندها لايكون موجوداً بشخصه تنوب زهوره عنه . وفي الصباح حين تكون الآنسة باريت بمفردها فإنها تكتب إليه . إن ذلك الرجل الأسمر ، المتوتر ، الفظ ، المفعم بالحيوية ، بشعره الأسود وخديه الأحمرين

twitter @baghdad_library

وقفازه الأصفر كان في كل مكان . لهذا كانت الآنسة باريت بالطبع في حالٍ أفضل ؛ وهي لهذا بالطبع تستطيع أن تمشي . فلاش نفسه كان يشعر أن من المستحيل عليه أن يظل ساكناً ، هاجعاً . ثمة أشواق قديمة انتعشت فيه ؛ وتملكه قلق جديد . حتى نومه صار حاشداً بالأحلام . إنه يحلم كما لم يحلم منذ الأيام الأولى في " ثري مايل كروس " – بالأرانب البرية تثب من الحشائش الطويلة ؛ بطيور الحجل ترتفع بذيولها الطويلة المتدلية ؛ بطيور التَدْرُج تنطلق هفهافةً من العشب القصير . كان يرى في ما يرى النائم إنه يصطاد ، أنه يطارد كلباً إسپانيولياً مرقطاً ، كلباً هرب فنجا منه . يحلم أنه في إسپانيا ؛ في ويلز ؛ في بيركشاير ؛ أنه يفرّ أمام هراوات الحراس في متنزه ريجينت . ثم يفتح عينيه . مامن أرانب برية ، ولا من طيور حجلٍ أو غيرها ؛ ما من سياط تقعقع ورجالٍ سمر يصيحون " سپان ! سپان ! " لم يكن هناك سوى السيد براوننغ في المقعد يتكلم مع الآنسة باريت وهي على أريكتها .

أمسى النوم مستحيلاً على فلاش وذلك الرجل موجود في الغرفة . إنه يقعي مصغياً وعيناه مفتّحتان . ومع إنه لايستطيع أن يتبيّن معنى ما للكلمات الصغيرة التي تتطاير من فوق رأسه من الساعة الثانية والنصف حتى الساعة الرابعة والنصف ثلاث مرات أسبوعياً في بعض الأحيان ، لكنه يستطيع أن يستشف بدقة هائلة التغيير في نبرة الكلمات . صوت الآنسة باريت كان متكلفاً ومرحاً على نحو غير طبيعي في البداية . أما الآن فقد اكتسب صوتها دفئاً ويسراً لم يكن يحس بمثلهما فيه قبلاً . وفي كل مرةٍ يأتي

فيها الرجل يحل في صوتيهما رنين جديد - فهما آناً يثرثران ثرثرة عجيبة غريبة ؛ وآناً يحومان فوقه كطيرين يطيران في فسيح الجو ؛ وآناً آخر يهدلان ويسجعان كطيرين في عش ؛ ثم إذا بصوت الآنسة باريت يرتفع مرة أخرى ويدور في الهواء ؛ عندئذٍ ينطلق صوت السيد براوننغ نابحاً بضجة ضحكه الحادة ، الخشنة ؛ بعدئذٍ لا تسمع إلا همهمة ما ، إلا غمغمة هادئة إذ يمتزج الصوتان معاً . لكنْ ما أن تحول الصيف الى خريف حتى لاحظ فلاش ، بتخوفٍ مريع ، نغمة أخرى . كان هناك في صوت الرجل عجالة جديدة ، وضغط وحيوية جديدان ، وشعر فلاش أن الآنسة باريت ترتعب من ذلك . إن صوتها يخفق ؛ بتردد ؛ يبدو كأنه يتعثر ويخفت ويناشد ويتأوه ، كأنها تتوسل طلباً للاستراحة ، طلباً للتوقف ، كما لو أنها خائفة . عندئذٍ يسكت الرجل .

إنهما لا يوليانه إلا قليلاً من الانتباه . لكأن فلاش بنظر براوننغ ليس إلا لوحاً من خشب عند قدمي الآنسة باريت . كان فلاش يحك رأسه أحياناً به حكاً قوياً ، متشنجاً ، حيوياً ، إنما بلا عاطفة ومهما كان معنى هذا الحك لم يكن فلاش يشعر إلا بامتعاض السيد براوننغ الشديد . كان محض مشهده ، بملابسه المخاطة على خير وجه ، بأناقته البالغة ، بجسده العضلي جداً ، وهو يلوي قفازه بيديه مشهداً يشحذ أسنان فلاش شحذاً يصل حد الهياج . ليته يغرز أسنانه غرزاً شديداً حتى تلتقي بعض أنيابه ببعض ، فتغور في ما تحويه سراويله مع هذا لم يتجرأ على ذلك . كان ذلك الشتاء (١٨٤٥-١٨٤٦) ، على العموم ، أكثر مواسم الشتاء التي عرفها فلاش كآبةً في حياته كلها .

twitter @baghdad_library

انصرم الشتاء ؛ وأطل الربيع مرةً أخرى . ولم ير فلاش نهاية للأمر ؛ ومع هذا ، وكما النهر بما يعكسه من أشجار ساكنة وأبقار ترعى وغربان تعود الى قمم الشجر وهو يجري حتماً رغم ذلك الى شلال ، كذلك تسير تلك الأيام كما يعرف فلاش نحو الكارثة . إن شائعات التغيير تحوّم في الجو . ويظن فلاش أحياناً أن خروجاً ما هائلاً وشيك الحدوث . هناك تلك الحركة التي تجري في البيت وتستعصي على الوصف ، الحركة التي تسبق القيام برحلةٍ ما ، فهل هذا أمر ممكن الوقوع ؟ الصناديق يمسح عنها الغبار مسحاً ، بل إنها لتفتح وهذا أمر لايصدقه العقل . ثم ت·· ق مرةً أخرى . لا ، إنها ليست الأسرة التي ستنتقل . فالأ· ·ناء والشقيقتان لايزالون يدخلون ويخرجون على عادتهم والسد باريت يقوم بزيارته المسائية ، بعد ذهاب الرجل ، في الساعة المألوفة . فما الذي سيحدث إذن ؟ ذلك أنه بانتهاء صيف ١٨٤٦ ك · فلاش على يقينٍ أن التغيير آتٍ . بوسعه أن يسمع ما ينم عن التغ·ير مرة أخرى في النبرة المتبدلة للأصوات الأزلية . فصوت الآنسة ب·ريت ، الذي كان فيما مضى مناشداً وهياباً ، قد فقد نبراته المتعثرة . إنه صوت يرن بتصميم وإقدام لم يسمعهما فلاش فيه من قبل · ليت السيد باريت يسمع النبرة التي بها ترحب إبنته بهذا الغاصب ، والضحكة التي بها تستقبله ، والتولّه الذي به يأخذ يدها بيده ! لكنْ ليس هناك من أحدٍ في الغرفة معهما سوى فلاش . كان التغيير بالنسبة الى فلاش ذا طبيعة حاقدة الى أقصى الحدود . فلم يقتصر الأمر على تغيّر الآنسة باريت نحو السيد براوننغ ، بل تجاوزه الى شعورها نحو فلاش بالذات وشمل التغيير علاقاتها

كلها به - إنها تعامل تحرّشات فلاش بها بفظاظة ؛ وتوقف تودّداته عند حدٍ باستهزاء ؛ إنها تجعله يشعر أن هناك شيئاً ما تافهاً ، سخيفاً ، متكلفاً ، في أساليبه العاطفية القديمة . استُفزت كبرياؤه وأذكيت غيرته . صمّم أخيراً ، عندما حلّ تموز ، أن يقوم بمحاولة عنيفة لاسترداد حظوته لديها ، فلعله يطرد بهذه المحاولة الدخيل . أما كيف ينجز هذا الغرض المزدوج فهو ما لم يكن يعرفه ولا يستطيع التخطيط له . ولكنْ ، وعلى حين غرة ، وفي اليوم الثامن من تموز استبدت مشاعره به . رمى بنفسه على السيد براوننغ وعضه بتوحّش . أخيراً التقت أسنانه بعضها ببعض في القماش التاصع لسروال السيد براوننغ ! لكن الساق التي في داخلها كانت بصلابتها كالحديد - ساق السيد كنيون كانت كأنها من الزبدة . نحى السيد براوننغ فلاش بضربة خفيفة من يده واستمر في الكلام . كأنّ كلا الشخصين ، براوننغ وباريت ، قد اعتبر الهجوم غير جدير بالانتباه . أحس فلاش بالإحباط التام وبالهزيمة ، ولم يبق في جعبته سهم ، فأقعى على طنافسه وهو يلهث ويتطاير منه الغضب والإحساس بسوء العاقبة . لكنه لم يحكم حكماً صائباً على بصيرة الآنسة باريت . فحينما خرج السيد براوننغ نادت عليه فأنزلت به أسوأ عقاب لم يعرف مثيلاً له في السابق قط . صفعته أولاً على أذنيه - لم يكـــن ذلك شيئاً يذكر ، بل سرّته الصفعة الى حدٍ ما وفي هذا ما فيه من الغرابة ، حتى أنه تمنى أن يصفع مرة أخرى . لكن الآنسة باريت قالت بعد ذلك بنبراتها الرصينة ، الواثقة ، أنها لن تحبه بعد الآن أبداً . إصاب هذا السهم مطعناً في قلبه . إنهما كانا قد عاشا معاً طيلة

twitter @baghdad_library

السنين ، وشاركا معاً في كل شيء ، واليوم ، وبسبب زلة صغيرة واحدة ، تقول إنها لن تحبه بعد الآن أبداً . ثم أنها ، كما لو كانت تريد أن تجعل طردها له كاملاً ، مضت فتناولت أزهار السيد براوننغ التي كان قد جلبها لها وأخذت تضعها في الماء في إناء . دار في خلد فلاش أن هذا عملٌ من أعمال الخبث المقصود والمتعمد ؛ عملٌ صمّم لإشعاره بتفاهته التامة . بدت كأنها تقول : " هذه الوردة منه وهذه القرنفلة . فليلتمع الأحمر بجانب الأصفر ؛ والأصفر بجانب الأحمر ، ولتستقر الورقة الخضراء هنا – " . تراجعت وهي تضع زهرة بجانب أخرى لتتملاها كأن الرجل ذاته كان قبالتها كتلةً من الأزهار البراقة – الرجل ذا القفازات الصفر . لكنها لم تستطع تماماً ، حتى وهي تضم الأوراق والأزهار بعضها الى بعض ، أن تتجاهل عيني فلاش الثابتتين اللتين بهما حملق فيها . لم تستطع أن تنكر " ذلك التعبير من اليأس الخالص على وجهه . " لم يسعها إلا أن تلين . كتبت تروي الحكاية الى السيد براوننغ : " أخيراً قلت له إذا كنت طيباً يا فلاش فلك أن تأتي وتقول أنا آسف . عندها أسرع يخترق الغرفة ، فلثم مرتعداً إحدى يديّ أولاً ثم الأخرى ، ورفع براثنه للمصافحة ، ونظر في وجهي بذلك النوع من العيون المتشفعة بحيث أنك كنت بالتأكيد ستصفح عنه كل الصفح كما صفحت أنا ." أجابها السيد براوننغ بالطبع قائلاً : " أوه ، فلاش المسكين ، هل تظنين أنني لا أحبه ولا أحترمه على رقابته الغيور – وعلى بطئه في معرفة شخص آخر بعد أن عرفك حيناً من الدهر ؟ " إن من السهولة على السيد براوننغ أن يكون كريم الأخلاق ، لكن ذلك الكرم السهل كان

أمضّ شوكةٍ تغرز في جنب فلاش .

ثمة حادثة أخرى وقعت بعد بضعة أيام تبيّن مدى افتراقهما الشاسع ، هما اللذان كانا على أشد ما يكون الاقتراب ، وتبيّن ضآلة المقدار الذي به يعوّل فلاش الآن على الآنسة باريت طلباً للعطف . فذات عصرٍ وبعد أن ذهب السيد براوننغ قررت الآنسة باريت أن تخرج بالمركبة الى متنزه ريجنت مع شقيقتها . ما أن خرجتا من المركبة عند بوابة المتنزه حتى انصفقت باب المركبة ذات العجلات الأربع على قدم فلاش . " صرخ على نحوٍ يثير الشفقة " ورفع قدمه نحو الآنسة باريت راجياً عطفها . في أيام مضت كان العطف سيبدى له وفيراً ولسبب أبسط . أما الآن فقد لاحت في عيني الآنسة باريت ملامح متجردةً عنه ، هازئةً به ، ناقدةً له . لقد ضحكت منه . حسبته يتظاهر دجلاً ؛ كتبت تقول : " ... وما أن لمس العشب حتى بدأ يركض دون أن يتذكر شيئاً مما حدث له . " ثم علقت ساخرةً : " إن فلاش يبالغ دائماً بشأن ما يصيبه من بلايا – إنه من المدرسة البايرونية – فهو يتخذ موقف الضحية . " وهنا أساءت الآنسة باريت حكمها عليه تماماً لأنها مستغرقة بعواطفها كلياً . لو أن قدمه كانت قد كسرت كسراً لكان مع هذا قد وثب راكضاً . إن ركضه ذاك كان جوابه على استهزائها ؛ لقد انتهى الأمر بيني وبينك – كان هذا هو المعنى الذي ألقاه إليها عندما عدا . كان شذا الأزهار مريراً له ؛ والعشب يكوي براثنه ؛ والغبار يملأ منخريه بخيبة أمل محيّرة . لكنه جرى – وعدا . وهاهي اللوحة المعتادة أمامه : " الكلاب يجب أن تقاد بسلسلة " ؛ وها هم حراس المتنزه بقبعاتهم العالية وهراواتهم الطويلة تنفيذاً

twitter @baghdad_library

لأمر اللوحة . لكن كلمة " يجب " لم يعدلها معنى بالنسبة له . إن سلسلة الحب قد انقطعت . فسيركض أنّى شاء ؛ يطارد طيور الحجل ؛ يطارد الكلاب الاسپانيولية ؛ يقتحم ألواح زهور الداليا ؛ يدمر الورود الحمراء والصفراء البراقة المتفتحة . فليقذف حراس المتنزه بهراواتهم عليه إن أرادوا . فليفجروا مخّه ضرباً . وليسقط ميتاً ، ممزق الأحشاء ، عند قدمي الآنسة باريت . إنه لا يعبأ بشيء . ولكن ، لم يحدث بطبيعة الحال شيء من هذا القبيل . مامن أحد طارده ؛ ما من أحد إلتفت إليه . كان حارس المتنزه الوحيد يحادث إحدى مربيات الأطفال . أخيراً عاد الى الآنسة باريت فطوقت رقبته بالسلسلة وذهنها شارد وقادته الى البيت .

كان من شأن هاتين المذلتين زلزلة الروح المعنوية في كلب اعتيادي إن لم نقل في إنسان اعتيادي . لكن فلاش بكل ما فيه من رقة ونعومة كان صاحب عينين تقدحان شرراً ، وعواطف لا تندلع أواراً فحسب بل تخمد وتستكن كنارٍ تحت الجمر . صمّم أن يلاقي عدوّه وجهاً لوجهٍ بمفرده . ما من ثالثٍ ينبغي أن يقف بينه وهذا الخصام النهائي . إنه خصام يجب أن يخوضه الطرفان الرئيسيان بالذات . لذا ففي عصر الثلاثاء ، الحادي والعشرين من تموز ، انسل فلاش الى الطابق الأرضي وانتظر في الردهة . لم يطل انتظاره . سرعان ما سمع وقع الخطى المألوف في الشارع ؛ ثم النقرة المألوفة على الباب . أُدخل السيد براوننغ . وبما أن هذا لم يكن على إدراك بالهجوم الوشيك إلا على نحو غامض ، كما أنه كان مصمماً فيما يبدو على مجابهته بروحية المهادنة ، فإنه جاء مزوداً بعلبة من المعجنات . كان فلاش ينتظر في الردهة . قام

السيد براوننغ على مايظهر بمحاولة بريئة لملاعبته ؛ لعله ذهب حتى الى حد تقديم قطعة من المعجنات إليه . كانت هذه الأيماءة كافية . وثب فلاش على عدوه بعنفٍ لا يبارى . إلتقت أسنانه ، مرةً أخرى ، في سروال السيد براوننغ . لكن فلاش لسوء الحظ نسي وهو في فورة اللحظة الحاسمة ما هو جوهري جداً – الصمت . فقد عوى ؛ انقض على السيد براوننغ ينبح عالياً . كان الصوت كافياً لأنذار من في المنزل . أسرعت الوصيفة ولسن نازلةً . ضربته ضرباً مبرحاً ، فتغلبت عليه . ثم أخذته بعيداً يحيط به الخزي . وإنه لخزي – أن يهاجم السيد براوننغ ، وأن تضربه الوصيفة . أما السيد براوننغ فلم يرفع إصبعاً واحداً للاحتجاج . مضى ، وهو يحمل معجناته معه ، غير مصابٍ بأذى ، دون انفعال ، وبرباطة جأش مثالية ، وصعد السلم بمفرده الى غرفة النوم . وسيق فلاش بعيداً .

وبعد ساعتين ونصف الساعة من الحجز التعيس مع الببغاوات والخنافس ، بين نباتات السرخس وأواني القلي والطهي في المطبخ ، استدعي فلاش الى المثول في حضرة الآنسة باريت . كانت مستلقية على الأريكة وبجانبها شقيقتها أرابيلاّ . اتجه فلاش نحوها مباشرةً وهو مؤمن بصواب قضيته . لكنها رفضت أن تنظر إليه . إلتفتت الى أرابيلاّ . لم تقل إلا " فلاش ، أنت سيء السلوك ، أغرب عن وجهي . " الوصيفة ولسن كانت هناك – ولسن الفظيعة ، التي لا هوادة فيها . إليها توجهت الآنسة باريت طلباً للمعلومات . قالت إنها قد ضربته " لأن ذلك كان هو الصحيح " . وأضافت أنها لم تضربه إلا بيدها . فأدين فلاش ببينّتها .

twitter @baghdad_library

افترضت الآنسة باريت أن الهجوم لم يسببه استفزاز من أحد ؛ وأضفت على السيد براوننغ صفات الفضيلة والكرم كلها ؛ إن فلاش قد ضرب من قبل خادمة بدون سوط ، لأن ذلك " كان هو الصحيح " . ليس هناك من شيء آخر يقال . كان هذا قرار الآنسة باريت ضده . كتبت تقول : " وهكذا أقعى على الأرض عند قدمي ، وهو ينظر إليّ من تحت حاجبيه " . ولكنْ ، ومع أن فلاش ربما كان قد نظر الى الآنسة باريت فإنها رفضت بالتأكيد حتى أن تلاقي عينيه . ها هي الآنسة باريت تستلقي على الأريكة ؛ وها هو فلاش يقعي على الأرض .

وإذ أقعى على الحصير منفياً فقد عانى من دوامة من دوامات العاطفة المصطخبة التي ترمي بالروح على الصخور فتتمزق إرباً إربا أو تتماسك ببطء وألم وقد وجدت لها موقع قدم على تربة رخوة لكي تصل الى أرضٍ يابسة ، ثم تظهر أخيراً على قمة كونٍ مدمر لتستعرض عالماً خلق من جديد وفق مخطط مختلف . فما الذي سيكون – التدمير أم إعادة التعمير ؟ تلك هي المسألة . لايمكن هنا إلا استشفاف وجيز لمحنته فقط ؛ ذلك أن نقاشه كان صامتاً . لقد بذل فلاش كل ما وسعه لقتل عدوه مرتين ؛ ففشل مرتين . سأل نفسه لماذا فشل ؟ فشل لأنه يحب الآنسة باريت . عرف ، وهو يرفع نظره إليها من تحت حاجبيه وهي مستلقية على الأريكة ، قاسيةً وصامتة ، إن من الواجب عليه أن يحبها الى الأبد . عرف أن الأمور ليست بسيطة بل معقدة . فهو إذا عضّ السيد براوننغ يكون قد عضها هي أيضاً . فالكراهية ليست كراهية وكفى ؛ الكراهية حبٌ أيضاً . هنا هزّ

فلاش أذنيه وهو يعاني الحيرة . تقلب على الأرض قلقاً . إن السيد براوننغ هو الآنسة باريت – والآنسة باريت هي السيد براوننغ ؛ الحب هو الكراهية والكراهية هي الحب . تمطّى وأنّ ورفع رأسه عن الأرض . دقت الساعة الثامنة . كان قد أقعى في مكانه مدةً تزيد على ثلاث ساعات يتقلب بين فكّي المطرقة السندان متنقلاً بين محنةٍ وأخرى .

كان الوضع على نحوٍ أدى حتى بالآنسة باريت ، على قسوتها وبرودها وصلابتها التي لاتلين ، الى أن تضع قلمها جانباً . كانت تكتب قائلةً للسيد براوننغ : " فلاش الشرير ! ... لو أن أناساً كفلاش اختاروا أن يتصرفوا بتوحش كالكلاب فعليهم أن يتحملوا النتائج حقاً ، كما يتحملها الكلاب عادةً ! والا نكى أن تصرفه كان موجهاً نحوك أنت الطيب نحوه والرفيق به ! إن أي شخص آخر غيرك كان سيتفوه (بكلمات متسرعة) في الأقل . " دار في خلدها أن من المستحسن حقاً شراء كمّامة لفلاش ؛ عندئذٍ رفعت نظرها ورأته . لابد أن شيئاً ما غير معتاد في نظراته قد صدمها . توقفت فوضعت قلمها جانباً وهي تتأمل . إنه كان قد أثار عطفها ذات مرة بقبلةٍ ، فظنته الإله پان . هذا الكلب كان قد أكل من يديها لحم طيرٍ وحلوى منقوعة بالحليب . كان قد تخلّى عن الشمس من أجلها . نادته إليها وقالت له إنها قد صفحت عنه .

إنما كان من المستحيل الصفح عنه كأنه لم يرتكب سوى نزوة عابرة ؛ كان من المستحيل أن يعاد مرةً أخرى الى الأريكة كأنه لم يتعلم شيئاً من عذابه نائماً على الأرض ؛ لايمكن الصفح عنه وكأنه الكلب ذاته وهو في واقع الأمر قد اختلف تماماً . هذا وقد استسلم

twitter @baghdad_library

فلاش الآن وقد أعياه الإنهاك . ولكنّ حدث . بعد بضعة أيام ، مشهدٌ مأثور بينه وبين سيدته يكشف عن أعماق عواطفه . كان السيد براوننغ قد جاء وذهب ؛ وكان فلاش بمفرده مع الآنسة باريت . كان سيقفز في الأحوال الطبيعية الى الأريكة ليجلس عند قدمها . لكنه الآن ، بدلاً من أن يثب كالعادة ليحظى بمعابثتها ، ذهب الى ما يعرف الآن بـ " مقعد السيد براوننغ " . هذا المقعد كان بغيضاً له في العادة ، وهو مقعد لايزال يتخذ شكل عدوه . أما الآن فإنه لم ينظر فقط الى المقعد " بل اجتاحته بغتةً نوبة من الوجد " ، فهكذا كانت المعركة التي كسبها ، هكذا كان كرم الأخلاق الذي غمره ، وهو ينظر الى المقعد . لاحظت الآنسة باريت هذه الأعجوبة الفائقة حين كانت تراقبه بإمعان . ثم رأته فيما بعد يحول عينيه نحو منضدة بذاتها . على تلك المنضدة كانت لاتزال توضع عليها علبة معجنات السيد براوننغ . " وقد ذكرني بذلك أن المعجنات التي جلبتها كانت موجودة على المنضدة " . إنها الآن معجنات قديمة ، تبدّل طعمها ، وزال عنها اي إغراء كلبيّ . كان مقصد فلاش واضحاً . لقد رفض أن يأكل الحلوى حين كانت طازجة ، لأنها قدّمت من عدو . سيأكلها الآن وقد تبدل طعمها لأنها انما تقدم منَ عدو آل إلى صديق ، لأنها عبارة عن رمز لكراهية آلت الى حب . أجل ، إنه سيأكلها الآن ، كما أبان . لذا نهضت الآنسة باريت وتناولت المعجنات بيدها . وعندما قدمتها له أنبته ، " وهكذا أوضحت له أنك قد جلبت العلبة له بالذات ، وأنه ينبغي أن يخجل من خبثه الماضي خجلاً يليق بفعلته ، وأن يحزم أمره لكي يحبك ولا يعضك في المستقبل - فيتاح له المجال لكي

ينتفع من طيبتك نحوه ." عندما كان فلاش يزدرد الرقائق الحائلة اللون من تلك المعجنات الممجوجة المذاق – كانت عفنة ، فاسدة ، رديئة الطعم – أقسم بأن يحب السيد براوننغ وألاّ يعضه في المستقبل ، مكرراً برصانة تامة ، بلغته الخاصة ، الكلمات التي استعملتها سيدته .

كوفيء على الفور – لا بتقديم معجنات تبدل طعمها ، ولا بأجنحة من لحم طير ، ولا بالمغازلات التي هي له الآن ، لا ولا بالسماح له مرةً أخرى بأن يستلقي على الأريكة عند قدمي الآنسة باريت . كوفيء روحانياً ؛ مع هذا كان التأثير جسدياً على نحو غريب . فكقضيب من حديد يتآكل فيلوّث الحياة الطبيعية من تحته ويقتلها ، استقرت الكراهية طيلة تلك الشهور وهي تنيخ على روحه . أما الآن ، وبفعل القص بسكاكين حادة ، بفعل الجراحة الأليمة ، فقد بُري الحديد بردياً فعاد خالياً من الشوائب . الآن يجري الدم مجدداً ؛ تنبجس الأعصاب وتستشعر الاهتياج ؛ تكتسي العظام لحماً . الطبيعة تمور بالجذل ، كما في الربيع . إن فلاش يسمع الطيور تغرد مرةً أخرى ؛ يشعر بالأوراق تنمو على الشجر ؛ إنه ، وهو يستلقي على الأريكة عند قدمي الآنسة باريت ، يشعر بالفخر والسرور يجريان في عروقه . إنه الآن معهما وليس ضدهما ؛ آمالهما وأمانيهما ورغائبهما هي آماله وأمانيه ورغائبه . بوسع فلاش أن ينبح الآن تعاطفاً مع السيد براوننغ . إن الكلمات القصيرة ، الحادة ، توقف الشعيرات على رقبته . وعندما صاح السيد براوننغ : " إني بحاجة الى أسبوع كامل من أيام الثلاثاء ، ثم الى شهر منها – الى سنة – الى عمر ! " أرجع فلاش صداه :

twitter @baghdad_library

أنا بحاجة الى شهر – الى سنة – الى عمر ! أنا بحاجة الى الأشياء كلها التي أنتما بحاجة إليها معاً . أننا جميعاً ثلاثة متآمرين في أشرف القضايا . اننا يجمعنا الوداد . اننا تجمعنا الكراهية . إننا يجمعنا التمرد على الاستبداد الأسود المشؤوم . إننا يجمعنا الحب . – وباختصار فإن آمال فلاش كلها الآن تتركز على إنتصارٍ ما ، إنتصارٍ لايدرك إلا بغموض ولكنه آخذ مع ذلك بالظهور يقيناً ، وتتركز على ظفرٍ ما مجيد سيكون ظفرهم جميعاً ، وعندها فجأةً ، وبلا تحذير ، وفي وسط الحضارة والأمن والصداقة – فقد كان فلاش في مخزنٍ بشارع فير مع الآنسة باريت وشقيقتها : وكان ذلك صباح الثلاثاء الأول من أيلول – ألقي بفلاش مكوراً رأساً على عقب في الظلام . أوصدت عليه الأبواب في زنزانة . لقد سُرق (*) .

(*) سُرق فلاش في واقع الأمر ثلاث مرات ؛ لكن وحدة الموضوع تقتضي ضغط السرقات الثلاث في سرقة واحدة . إن مجموع المبالغ المدفوعة من الآنسة باريت الى سارق الكلاب بلغ عشرين باوناً استرلينياً .

الفصل الرابع

وايـــت تشاپيـــــــل

كتبت الآنسة باريت تقول : " ذهبنا هذا الصباح ، أرابيل وأنا ، وهو معنا ، بالمركبة الى شارع ڤير في شغل لنا ، وهو يتبعنا كالعادة داخلاً دكاناً وخارجاً منه ، وكان بين قدميّ حينما صعدت المركبة للعودة . ما أن استدرت وناديت عليه باسمه فجالت أرابيل ببصرها بحثاً عنه - حتى وجدت أن فلاش غير موجود ! لقد أخذ في تلك اللحظة ، من تحت العجلات ، فهل تفهم ما أعني ؟ " . وقد فهم السيد براوننغ ما تعنيه على أحسن وجه . كانت الآنسة باريت قد نسيت السلسلة ؛ لذا سُرق فلاش . فعلى مثل هذا كانت شريعة شارع ومپول وما جاوره في عام ١٨٤٦ .

صحيح . ما من شيءٍ يتجاوز الحد الظاهر للرصانة والأمن السائد في شارع ومپول نفسه . فبالنسبة الى مريضة تسير على قدميها فيه أو تجلس في مقعدٍ صحي يتدحرج على رصيفه ، لاتقع العين إلا على المشهد المقبول لبيوتٍ من ذوات الطوابق الأربعة ، والنوافذ الزجاجية والأبواب من خشب الصاج . حتى المركبة والحصانان اللذان يجرانها ، إبان التنزه عصراً ، لايمكن أن يتجاوزوا حدود الاحتشام والأحترام ، إن كان سائق المركبة من ذوي اللياقة . أما إذا لم تكن أنت مُقعداً ، ولم تكن تمتلك مركبة مع حصانين ، وكنت من ذوي النشـــاط واللياقة البدنية والشغف بالمشي ، فقد ترى عندئذٍ من المشاهد وتسمع من اللغة وتشم من الروائح . على مسافة لا تبعد مرمى حجر من شارع ومپول ، ما

twitter @baghdad_library

يلقي الشكوك على رصانة هذا الشارع نفسه . هكذا وجد الوضع الباحث الاجتماعي السيد توماس بيمز(*) حين أخذ على عاتقه في تلك الأزمنة مهمة السير في أرجاء لندن . فقد دُهش ؛ لا بل أصيب بالصدمة . ثمة بنايات رائعة تقوم شاهقة في وستمنستر ، مع هذا فهناك خلفها تماماً سقائف خربة يسكنها أناس يتجمهرون زرافات فوق قطعان البقر - " إثنان في كل سبعة أقدام من المكان " . شعر السيد بيمز أن عليه إخبار الناس بما رأى . ولكنْ ، كيف يسع المرء أن يصف وصفاً مؤدباً غرفة للنوم تسكنها عائلتان أو ثلاث عوائل فوق زريبة للبقر ، والزريبة لاتهوية فيها ، والأبقار تحلب وتذبح وتؤكل تحت غرف النوم ؟ حين حاول السيد بيمز التصدي لتلك المهمة وجدها تثقل كاهل اللغة الانكليزية بمصادرها كلها . مع هذا فقد شعر أن عليه أن يصف ما رآه خلال مشية له ذات يوم عصراً في بعض أحياء لندن الأرستقراطية جداً . كان خطر التيفوس عظيماً . ولم يكن الأغنياء يعرفون ماهية الأخطار التي يتعرضون إليها . أما هو فلم يستطع أن يلتزم الصمت حين وجد ما وجد في وستمنستر وبادنغتون ومريلبون . فهذا مثلاً قصر قديم كان يعود في الماضي لأحد النبلاء العظام . وجد بين أطلاله بقايا من رفوف المواقد الرخامية . كانت الغرف مغلفة بالخشب وأسيجة السلالم ذات نقوش محفورة ، مع هذا فالأرض خائسة والحيطان تقطر قذارة ؛ ثمة قطعان من رجال ونساء نصف عراة يسكنون في قاعات الولائم الكبرى القديمة . استمر السيد بيمز

(*) وهو مؤلف كتاب " مباحات لندن " الصادر في سنة ١٨٥٠ ، وهو من المراجع التي اعتمدتها فرجينيا وولف في كتابة هذا الجزء من السيرة .
المترجم

في سيره . هذا مقاول بناء مقدام قام بهدم قصر العائلة القديم وأقام مكانه شققاً سكنية رخيصة البناء . ماء المطر يقطر من السقف والريح تهب من خلال الجدران . رأى السيد بيمز طفلاً ينزل صفيحة معدنية في جدول ماء أخضر . سأله هل يشربون هذا الماء ؟ قال الطفل نعم نشربه ونغتسل فيه أيضاً ، وذلك أن صاحب الملك لايسمح بفتح صنابير المياه إلا مرتين في الأسبوع . كانت تلك المشاهد أشد إثارة للدهشة لأن المرء إنما يعثر عليها في أرقى الأحياء تمدناً وأكثرها رصانةً في لندن – " إن أرقى الأحياء الأرستقراطية تشارك بنصيبها في هذا الوضع ." هناك مثلاً ، خلف غرفة الآنسة باريت ، أتعس مباءة لسكن الفقراء في لندن . إن ذلك المقام الرفيع الذي يوحي بالاحترام يمتزج بهذه القذارة المريعة . لكنّ هناك أحياء معينة ، بالطبع ، خصصت للفقراء وتركت لشأنها ، ففي وايت تشابيل ، أي في حيّزٍ مثلث من الأرض في نهاية شارع توتنهام كورت ، كان الفقر والرذيلة والبؤس يتكاثر ويمور وينتشر قروناً دون تدخل من أحد . ثمة كتلة كثيفة من الأبنية العتيقة في سانت غايلز " تكاد تكون مستوطنة لانزال العقاب بالمجرمين ، أو مدينة مستقلة للشحاذين ، يتجمع فيها الفقراء على ذلك النحو البائس ، ولا عجب أنها تسمى بموطن الغربان ، ذلك أن الناس يكتظون فيها بعضهم فوق بعض كما تكتظ الغربان فتسوّد أعالي الأشجار . إنما المباني هنا ليست أشجاراً ، ولا هي أطول ارتفاعاً منها . إنها زنزانات حجرية تقطعها دروب تجري فيها القانورات . دروب تعمرها طوال النهار كائنات بشرية شبه عارية ؛ وفي الليل يصب في الجدول مرةً أخرى

twitter @baghdad_library

تيار اللصوص والمتسولين والبغايا بعد أن كدّوا في عرض بضاعتهم نهاراً في الطرف الغربي من المدينة . الشرطة لاتستطيع أن تفعل شيئاً . ما من عابر سبيل يستطيع أن يفعل بمفرده شيئاً سوى الاسراع بالمرور ما وسعه ذلك ، ولعله ينوّه كما نوّه السيد بيمز ، مستعيناً بكثير من المقتسبات والمراوغات اللفظية وحسن الكلام ، لكي يقول إن الأمور هناك ليست على ما ينبغي تماماً . هذا والهيضة آتية . أما التنويه الذي سينوه به هذا الوباء فإنه لن يكون مراوغاً .

ولكنّ أمارة ظهور الوباء لم تكن قد بانت بعد في صيف ١٨٤٦ . كان السبيل الأمين الأوحد المفتوح أمام سكان شارع ومپول وما جاوره هو البقاء داخل المنطقة المحترمة على الدوام وقيادة كلابهم ربطاً بالسلسلة . فإذا نسي المرء ذلك ، كما نسيت الآنسة باريت ، كان عليه دفع الجزاء ، كما ستدفعه الآنسة باريت الآن . إن الشروط التي يتعايش بمقتضاها شارع ومپول مع سانت غايل معايشة وثيقة هي شروط معروفة تماماً . سانت غايل يسرق ما يستطيعه ؛ وشارع ومپول يدفع ما يجب عليه . لذا فقد بدأت أرابيل على الفور " تواسيني وتبين لي أنني سأسترجع فلاش بالتأكيد لقاء عشر باونات في أكثر تقدير ." كان هذا المبلغ في تقديرهم هو الثمن التقريبي الذي سيطلبه السيد تايلر فداءً لكلبٍ من فصيلة الكوكر الاسپانيولي . السيد تايلر هذا هو رئيس العصابة . فما أن تفقد سيدة من شارع ومپول كلبها حتى تذهب إليه ، فيحدد السعر الذي يتحتم دفعه ؛ وإلا تلقى رزمة من الورق الأسمر في شارع ومپول بعد بضعة أيام تحتوي على رأس الكلب

وأقدامه . كانت هذه تجربة سيدة واحدة في الأقل من سيدات الحي حاولت أن تساوم السيد تايلر . أما الآنسة باريت فكانت تنوي الدفع بطبيعة الحال . لذا ما أن عادت الى المنزل حتى أخبرت شقيقها هنري ، فذهب هذا يقابل السيد تايلر بعد ظهر ذلك اليوم نفسه . وجده " يدخن لفافة من السيكار في غرفة تزينها التصاوير " – والسيد تايلر في ما يقال يحصل على دخل يقدر بألفين أو ثلاثة آلاف من الپاونات سنوياً من عملية كلاب شارع وميول – فوعد هذا بأنه سيجتمع بـ " جمعيته " وأن الكلب سيعاد في اليوم التالي . كان الأمر ينطوي على الإغاضة ويثير الانزعاج ، خاصة في وقت كانت الآنسة باريت بأشد الحاجة الى نقودها كلها ، ولكنْ تلك كانت هي النتائج الحتمية لنسيان المرء ربط كلبه بسلسلة في سنة ١٨٤٦ .

أما بالنسبة الى فلاش فقد كانت الأمور مختلفة تماماً . إن الآنسة باريت ذاتها تخيلت " أن فلاش لايدري أنه سيعاد " ؛ وفلاش لم يتقن قط مبادىء المجتمعات الإنسانية . كتبت الى السيد براوننغ بعد ظهر الثلاثاء ، الأول من أيلول تقول :" إنه سيعوي طيلة هذه الليلة وينتحب ، أنا أعلم ذلك جيداً ." هذا وحين كانت الآنسة باريت تكتب ذلك الى السيد براوننغ كان فلاش يعاني من أفظع تجربة تقع له في حياته . كان حائراً الى أقصى حدود الحيرة . فهو في اللحظة السابقة كان في شارع ڤير يتجول بين الإستبرق والحرير ؛ وفي اللحظة التالية انقلب متكوراً رأساً على عقب في كيس ؛ وسحل على عجل عبر الشوارع ، وأخيراً نُفض – ها هنا . وجد نفسه في ظلام دامس . وجد نفسه في برد ورطوبة .

twitter @baghdad_library

ما أن زايله الدوار حتى تبين بضعة أشكال في حجرة معتمة واطئة - مقاعد محطمة ، وسرير مكسور . عندئذٍ أُمسك بتلابيبه وربط ربطاً شديداً من الساق بعائقٍ ما . زحف شيء على الأرض ، فلم يدر هل كان دابةً أو إنساناً . ثمة أحذية ضخمة بتنورات موحلة ظلت تتعثر داخلةً وخارجة . الذباب يطن على نتفٍ من لحم قديم يتعفن على الأرض . الأطفال يتسللون من زوايا مظلمة فيقرصون أذنيه . فلاش يهرّ فتهوي يد ثقيلة تضربه على رأسه ، أقعى في المساحة الصغيرة التي لاتتجاوز بضع بوصات من الطابوق الرطب لصق الجدار . إنه يرى الآن أن الأرض مكتظة بحيوانات من أنواعٍ شتى . الكلاب تمزق عظمة متقيحة وتنهشها وقد تجمعت عليها . كانت ضلوع الكلاب ناتئة في جلودها - فهي جائعة ، وقذرة ، وعليلة ، لم يمسسها مشط أو فرشاة ؛ مع هذا فهي جميعاً ، كما يستطيع فلاش أن يرى ، كلاب من أرقى السلالات ، كلاب ذات سلاسل ، كلاب يقودها السعاة ، مثله .

أقعى فلاش على الأرض ساعةً بعد أخرى ، لا يتجرأ حتى على الأنين . كان العطش أسوأ ما يعانيه ؛ تناول جرعة واحدة فقط من الماء الكثيف المخضوضر الذي كان في جردل قريب منه فعافته نفسه ؛ إنه يفضل الموت على شرب جرعة أخرى من هذا الماء . مع هذا فإن كلباً سلوقياً جليلاً كان يشرب منه شرب الهيم . وكلما انفتح الباب برفسة قدم رفع فلاش نظره . الآنسة باريت ؟ هل هي الآنسة باريت ؟ هل أتت أخيراً ؟ لكن الداخل هو مجرد وحش كثيف الشعر ، يمرّ فينحيهم جميعاً عن طريقه رفساً ويرمي بنفسه على مقعدٍ مكسور لينطرح عليه . ثم تكاثف الظلام

بالتدريج . فلاش لايكاد يميزّ أشكال الأشياء المطروحة على الأرض ، أو على السرير ، أو على المقاعد المحطمة . على الموقد يلتصق عقب شمعة صغير . ثمة لهبة تشتعل في قناة المياه القذرة في الخارج . فلاش يرى على بصيصها المرتعش وجوهاً فظيعة تمر في الخارج ، وهي تنظر نظرات خبيثة من النافذة . ودخلوا ، حتى اكتظت الحجرة الصغيرة بهم فارتد فلاش على عقبيه وأقعى ملتصقاً بالجدار . جلس هؤلاء الوحوش المرعبون القرفصاء ، الرجال بملابس رثة . النساء متبرجات ، انحنوا أمام المنضدة . بدأوا يحتسون الخمر ؛ انهم يتشاتمون ويصفع أحدهم الآخر وتدحرجت ، من الأكياس التي طرحت على الأرض ، كلاب أخرى - كلاب الحضن الصغيرة ، كلاب الصيد من شتى الأنواع ، ولاتزال أطواقها على رقابها ؛ ثمة ببغاء ضخمة مهتاجة ترفرف بجناحيها طائرةً من زاوية الى أخرى وهي تزعق " أنا حلوة . أنا حلوة " بلهجة كانت سترعب صاحبتها الأرملة ثم فتحت أكياس النساء ،فطرحت منها على المنضدة أسورة وأختام ودبابيس من النوع الذي كان فلاش يرى الآنسة باريت تتزين بها ، والآنسة هنريتّا أيضاً . وأولئك الشياطين يخمشون الحلي وينتشونها ؛ يتشاتمون ويختصمون بشأنها . الكلاب تنبح الأطفال يزعقون ، والببغاء الرائعة - ذلك الطير الذي كثيراً ما شاهد فلاش أمثاله معلقاً من نوافذ شارع وميول - تزعق " أنا حلوة ، أنا حلوة " على نحوٍ أسرع فأسرع الى أن قُذفت بنعال فنشرت جناحيها الكبيرين ، بلونيهما الرمادي الشبيه بلون الحمام والمرقط بالأصفر ، نشراً أخرق . عندئذٍ انقلبت الشمعة وهوت .

twitter @baghdad_library

أظلمت الحجرة . أخذت تزداد حرارةً باطراد ؛ الرائحة والحرارة لاتحتملان ، وأنف فلاش يتحرق ؛ لبدته ترتعش . كل هذا ولم تأت الآنسة باريت .

كانت الآنسة باريت تستلقي على أريكتها في شارع ومپول . إنها تشعر بالغيظ ؛ تشعر بالقلق . لكنها ليست مذعورة على نحوٍ جدي . فلاش سيقاسي بالطبع ؛ سيئن ويعوي طوال الليل ؛ لكن الأمر لن يطول سوى سويعات . السيد تايلر سيحدد المبلغ ، فتدفعه ، ويعود فلاش .

وبزغ فجر الأربعاء ، الثاني من أيلول ، على معقل الغربان في وايت تشاپيل .أضحت النوافذ المكسورة وهي تتلطخ تدريجياً بلون رمادي . سقط الضياء على الوجوه الملتحية للوحوش المنبطحين على الأرض . أفاق فلاش من غشاوة حجبت عينيه فأدرك الحقيقة مرة أخرى . هذه هي الحقيقة الآن – هذه الحجرة ، هؤلاء الوحوش ، هاته الكلاب المنتحبة ، الناهشة ، المربوطة بإحكام ، هذه الظلمة الضبابية ، هذه الرطوبة . هل يمكن له أن يصدق بأنه كان أمس في مخزنٍ ، مع سيـــدات ، محاطاً بالاستبرق ؟ هل كان هناك فعلاً مكان يسمى شارع ومپول ؟ هل كانت توجد غرفة حيث يتألق الماء النقي في إناءٍ أرجواني ؟ هل كان يستلقي على طنافس ؟ هل كانت تقدم له أجنحة الدجاج المشوي شيّاً رائعاً ؟ هل كان قد مزّقه الغضب والغيرة فعض رجلاً بقفازات صفراء ؟ إن تلك الحياة كلها طفت هي وما فيها من عواطف بعيداً ، فذابت ، وباتت سراباً .

وهنا ، في هذه الحجرة ، تسرّب الضياء المغبرّ ، فقامت

إحدى النسوة وهي تزيح نفسها من على كيسٍ كانت تجلس عليه وذهبت مترنحةً لتشتري الجعة . ثم بدأ احتساء الخمر وتبادل الشتائم مرةً أخرى . رفعته إمرأة بدينة من أذنيه وقرصت أضلاعه ، وأطلق أحدهم نكتة قبيحة عنه - فضجوا ، حين رمته المرأة على الأرض ، بالضحك . انفتح الباب رفساً بالأقدام وانصفق . فلاش يرفع عينيه كلما حدث ذلك . هل هي الوصيفة ولسن ؟ هل من الممكن أن يكون الداخل هو السيد براوننغ ؟ أو الآنسة باريت ؟ لكنْ لا - إنه ليس سوى سارق آخر ، قاتل آخر ؛ فيعود فلاش مقعياً من مشهد تلك التنورات الموحلة ، تلك الأحذية القاسية ، الشوكية . حاول مرةً أن يقضم عظماً رمي إليه لكن أسنانه لم تنفذ فيه كأنه قدّ من صخر ، وعافت نفسه رائحته الزنخة . تزايد عطشه فاضطر أن يلعق قليلاً من الماء الأخضر الذي انسكب من الجردل . ولكنْ ما أن أخذ يوم الأربعاء يتطاول في الأمد ، وفلاش يزداد تهيجاً وظمأ ووجعاً وهو ينطرح على ألواح الخشب المكسور ، حتى اختلط عنده الشيء بالآخر . إنه لايكاد يلاحظ ما يجري من حوله .لم يرفع رأسه وينظر إلا عندما فتح الباب . لا ، إنها ليست الآنسة باريت .

وأمست الآنسة باريت ، وهي تضطجع على الأريكة في شارع وميول ، نهباً للقلق . ثمة عقبة في الاجراءات . كان تايلر قد وعد بالذهاب الى وايت تشابيل عصر الأربعاء ليجتمع " بالجمعية " . مع هذا فقد ولىّ عصر الأربعاء ، ومساء الأربعاء ، ولم يحضر السيد تايلر . افترضت باريت أن هذا لايمكن أن يعني سوى المطالبة برفع الثمن - وهو أمر منغص تماماً في الحال

twitter @baghdad_library

الحاضر . ولكن سيكون عليها بالطبع أن تدفع الثمن الجديد . كتبت الى السيد براوننغ تقول :" أنت تعرف أنني يجب أن أسترد كلبي فلاش . ولا يسعني التعرض لأية مجازفة فأساوم وأماحك " . وهكذا اضطجعت على الأريكة تكتب الى السيد براوننغ وتتسمعّ للطرق على الباب . لكن الوصيفة ولسن صعدت بالرسائل ؛ صعدت بالماء الحار . وحان وقت النوم وفلاش لم يأت .

وبزغ فجر الخميس ، الثالث من أيلول ، في وايت تشابيل . الباب ينفتح وينغلق . كلب الصيد الأحمر الذي كان يهرّ طوال الليل بجانب فلاش على الأرض يحمله شخص متوحش يرتدي صديرة جلدية مما يرتديه القصابون فيذهب به – الى أيّ مصير ؟ وما هو الأفضل : القتل أم البقاء هنا ؟ أيهما أسوأ : هذه الحياة أم ذلك الموت ؟ إن الابتزاز والجوع والعطش والروائح الكريهة التي تملأ المكان – هنا تذكر فلاش أنه كان ذات يوم قد امتعض من شذى العطر – أخذت كلها تزيل سراعاً أي تصـور واضح في ذهنه ، أية رغبة منفردة في خاطره . بدأت تراوده نتف من ذكريات قديمة . هل هذا هو صوت الدكتور متفورد يصيح في الحقل ؟ هل هذه خادمة الآنسة متفورد تغتاب الناس في كلامها مع الخباز عند الباب ؟ حدثت خشخشة في الغرفة فظن فلاش أنه يسمع الآنسة متفورد وهي تحزم باقة من زهور الجيرانيوم . لكنها ليست سوى الريح – فقد كان اليوم عاصفاً – وهي تضرب الورق الأسمر الذي يسدّ فتحةً في زجاج الشباك المكسور ؛ ليست سوى صوت من مخمور يجوب أرجاء المكان المويوء ؛ وليست سوى العجوز الشمطاء تثرثر باستمرار في ركنٍ من الأركان وهي تقلي السمك

على النار . إن فلاش قد نُسي وتمّ التخلي عنه . مامن عونٍ قادم . مامن صوت يكلمه – الببغاء تصيح " أنا حلوة ، أنا حلوة " وطيور الكناري مستمرة في زقزقتها عديمة المعنى .

من ثم ألقى المساء بعتمته على الحجرة ؛ فألصقت الشمعة في ماعونها الصغير ؛ بصيص الضوء يلوح من الخارج ؛ أخذت جماعات من الأشرار وأكياسهم على ظهورهم ، وجماعات من النسوة المبهرجات ، المتبرجات ، يدخلون ويرمون بأنفسهم على الأسرة المكسورة والمناضد المحطمة . إن ليلة أخرى قد أرخت سدولها على وايت تشابيل . المطر يقطر باطراد من ثقب في السقف فترن قطراته في الجردل الذي وضع لتلقّيها . أما الآنسة باريت فلم تأت .

بزغ فجر الخميس في شارع وميول وما من أثر لفلاش – ولا من خبرٍ من تايلر . هلعت الآنسة باريت أشد الهلع . قامت باجراء استقصاءات . استدعت شقيقها هنري ، وحققت معه . فظهر لها أنه كان قد خدعها . إن " الإبليس الأعظم " تايلر جاء حسب وعده في الليلة الماضية ، وحدد شروطه – ست جنيهات للجمعية ونصف جنيه له شخصياً . على أن هنري ، بدلاً من إخبارها ، قام بإخبار السيد باريت ، وكانت النتيجة بالطبع أن السيد باريت أمره بألاّ يدفع ، وبأن يخفي الزيارة عن شقيقته . كانت الآنسة باريت " مغتاظة جداً وغاضبة " . طلبت من شقيقها أن يذهب في الحال ويدفع المبلغ . فرفض هنري " وتحدث عن أمر الوالد " . لكنها احتجت تقول ألاّ جدوى من الحديث عن الوالد لأنهم إذا انشغلوا بالحديث عن الوالد فسيقتل فلاش . حزمت أمرها : إذا لم يذهب

twitter @baghdad_library

هنري فستذهب هي . كتبت الى السيد براوننغ تقول : " ... إذا لم يفعلوا كما أريد فسأذهب صباح الغد وآتي بفلاش معي ."

لكن الآنسة باريت قد اكتشفت الآن أن من السهل أن تقول هذا الكلام ومن الصعب أن تنفذه . إن الصعوبة التي تواجهها في ذهابها الى فلاش تكاد توازي الصعوبة التي تواجه فلاش في مجيئه إليها . كان شارع ومپول بأسره ضدها . فقد عرف الجميع بنبأ اختطاف فلاش ، وبأن تايلر يطالب بفدية لإرجاعه . أن شارع ومپول مصمم على الوقوف بوجه حارة وايت تشاپيل . أرسل الأعمى السيد بويد كلمة تفيد بأن دفع الفدية سيكون برأيه " إثماً عظيماً ". والدها وشقيقها متفقان على معارضتها وهما على استعداد للقيام بأي منكر من أجل صالح طبقتهما . والا نكى من كل هذا – بل الأدهى والأمرّ – أن السيد براوننغ قد ألقى بثقله كله ، ببلاغته كلها ، بعلمه وبمنطقه جميعاً ، الى جانب شارع ومپول وضد فلاش . فقد كتب يقول إذا تساهلت الآنسة باريت مع تايلر فإنها إنما تتساهل مع الاستبداد ؛ إنها تتساهل مع المبتزين ؛ إنها تزيد من طغيان الشر على الخير ، ومن قوة الخسة ضد نزاهة الأخلاق . إنها إذا أجابت تايلر الى طلبه " ... فكيف سيكون حال الفقراء من أصحاب الكلاب الذين لا مال لديهم يكفي لافتداء كلابهم " ؟ والتهبت مخيلة السيد براوننغ فتخيل ما سيقوله هو شخصياً لتايلر لو أن هذا طلب منه بضعة قروش فقط ؛ إنه سيقول :" أنت مسؤول عن إجراءات عصابتك ، وأنا أخصك بالذكر أنت بالذات – لا تكلمني بهذا الهراء عن قطع الرؤوس والأقدام . وعليك أن تعلم بأني سأنفق حياتي بأسرها للقضاء عليك وعلى ما

يصدر عنك من إزعاج – وبأني سألجأ الى كل وسيلة ممكنة لكي أكون أنا حتفك وحتف المتواطئين معك من الذين سأكتشفهم – أما أنت فقد اكتشفتك ولن يغيب نظري عنك ... هكذا سيكتب السيد براوننغ الى تايلر إذا واتاه الحظ بلقاء ذلك الذات الكريم . إنه كان قد كتب حقاً رسالة ثانية أرسلها ببريدٍ لاحق في عصر ذلك الخميس ذاته وقال فيها :" ... إنه لمن الفظيع أن نتصور كيف أن جميع المضطهدين [بكسر الهاء] بشتى مراتبهم يمكنهم إذا أرادوا أن يمسكوا بخناق الضعفاء والصامتين ويشدوا على نياط قلوبهم عندما يكتشفون أسرارهم " . إنه لايلوم الآنسة باريت – فأي شيء تفعله لايمكن أن يكون إلا صائباً كل الصواب ، ومقبولاً كل القبول من لدنه . استمر يكتب صباح الجمعة قائلاً إني مع ذلك " أظن أن في الأمر ضعفاً يرثى له ... " فهي إن شجعت تايلر الذي يسرق الكلاب فهي إنما تشجع أولئك الذين يسرقون من الناس شخصياتهم الحقيقية بشن حملاتهم التشهيرية عليهم لابتزازهم ، كما يفعل البعض . إنها ستكون مسؤولة بصورة غير مباشرة عن كل التعساء الذين انتحروا أو فروا من البلاد لأن مبتزاً من هؤلاء قد لطخ أسماءهم ." ولكن فيم هذا التبسيط عن أوضح الأمور في الدنيا ؟ " هكذا كان السيد براوننغ يرعد ويزيد من " نيوكروس " مرتين يومياً .

كانت الآنسة باريت ، وهي على أريكتها ، قد قرأت الرسائل . لم يكن هناك شيء أسهل عليها من أن توافق ، ومن أن تقول :" إن رأيك الحسن هذا هو عندي أجدى من مئة اسپانيولي كوكر " . ولا أسهل من أن تسند ظهرها الى وسائدها وتتنهد

twitter @baghdad_library

قائلةً :" إني إمرأة ضعيفة ؛ إني لا أعرف شيئاً عن القانون والعدالة ؛ قرّر أنت عني ". ما عليها إلا أن ترفض دفع الفدية ؛ ما عليها إلا أن تتحدى تايلر وجمعيته . فلئن قتل فلاش ، وجاءت الرزمة الرهيبة وفتحتها ليسقط منها رأس فلاش وأقدامه ، فإن روبرت براوننغ سيكون الى جانبها ليؤكد لها أنها إنما فعلت صواباً فكسبت احترامه . لكن الآنسة باريت لانخضع للترهيب . تناولت قلمها وسفّهت روبرت براوننغ . قالت إنه لشيء حسن جداً الاقتباس من الشاعر الميثافيزيقي جون دُن ؛ والاستشهاد بقضايا الابتزاز ؛ واختراع الأجوبة الحماسية لمجابهة السيد تايلر – إنها كانت ستفعل الشيء نفسه لو أن تايلر هذا قد لطمها ، لو أن أحد المبتزين قد شوّه سمعتها – أجل ، كانت ستفعل ذلك ! لكنْ ما الذي كان سيفعله السيد براوننغ لو أن لصوصاً كانوا قد سرقوها هي ؛ وأحكموا خناقهم عليها ؛ وهددوا بقص أذنيها وارسالهما بالبريد الى نيوكروس ؟ وبصرف النظر عما كان سيفعله هو فإنها هي نفسها قد حزمت أمرها . إن فلاش لاحول له ولا طول . وما واجبها إلا نحوه ." لكنّ فلاش ، فلاش المسكين الذي أحبني باخلاص ، هل لي الحق بالتضحية به وهو في البراءة التي هو عليها من أجل ذنبٍ ما يرتكبه السيد تايلر وأشباهه في العالم ؟ " إنها ستقوم بإنقاذ فلاش مهما قال السيد براوننغ حتى إذا وقعت فريسةً بين شدقي وايت تشابيل من أجل إعادته ، وحتى إذا أخذ روبرت براوننغ يزدريها على قيامها بذلك .

لذلك ففي يوم السبت بدأت ، ورسالة السيد براوننغ لاتزال مفتوحة أمامها على المنضدة ، بارتداء ملابسها . وقرأت : " كلمة

أخيرة واحدة – إني في كل هذا أبذل جهدي كله ضد السياسة المقيتة للأزواج والآباء والأشقاء والمتسلطين عامةً ." إذن ، فهي إن ذهبت الى وايت شابيل فإنها تقف ضد روبرت براوننغ وضد صف الآباء والأشقاء والمتسلطين عامةً . مضت ترتدي ملابسها . ثمة كلب ينبح في الأسطبل . وفلاش مشدود الوثاق . لاحول له ولا طول بإمرة رجال قساة . بدا لها كأن الكلب الذي ينبح كان يستغيث بها وهو يعـــوي :" فكرى بفلاش ". لبست حذاءها ، ورداءها ، وقبعتها . رمقت رسالة السيـــد براوننغ مرةً أخرى . قرأت :" إني على وشك الزواج منكِ ". الكلب لايزال ينبح . خرجت من الغرفة ونزلت الى الطابق الأرضي .

لقيها هنري باريت وأخبرها أنها . كما يرى ، قد تسلب وتقتل إذا نفّذت ما تهدد به . لكنها أمرت الوصيفة ولسن بأن تنادي على إحدى المركبات . أطاعتها ولسن بخنوع وهي ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها . وجاءت المركبة . قالت الآنسة باريت لولسن أن اصعدي . صعدت ولسن وإن كانت مقتنعة أن في ذلك حتفها . قالت الآنسة باريت لسائق المركبة أن اذهب الى شارع ماننغ في شورديج . صعدت الآنسة نفسها فمضت المركبة بهما . سرعان ما تجاوز الركب منطقة النوافذ الزجاجية ، والأبواب الساج ، ورحبات المداخل المسيّجة . كإننا في عالم لم تره الآنسة باريت من قبل قط ، ولم تتصور وجوده قط . كانتا في عالمٍ تزدحم فيه الأبقار تحت غرف النوم ، حيث تسكن عوائل بأسرها في غرف محطمة النوافذ ؛ عالمٍ لايجري فيه ماء الأنابيب إلا مرتين أسبوعياً ، عالم تلد فيه الرذيلة والفقر فقراً ورذيلة . لقد جاءتا الى

twitter @baghdad_library

منطقة مجهولة بالنسبة الى سواق المركبات المحترمين . وقفت المركبة ؛ سأل السائق عن الطريق من إحدى الحانات ." فخرج رجلان أو ثلاثة . قال أحدهم لاشك أنكم تبحثون عن السيد تايلر ! " فلا يمكن ، في عالمٍ غامض كهذا ، أن تأتي مركبة تحمل سيدتين إلا طلباً لأمر واحد فقط ، وذلك الأمر معروف سلفاً . كان الوضع ينطوي على الشر الى اقصى حد . هرع أحد الرجال الى بيتٍ ما ، وعاد يقول إن السيد تايلر " ليس في البيت ! فهلاّ تفضلت بالنزول ؟ توسلت إلي ولسن وهي تهمس فزعاً ألا أفكر بشيء من هذا القبيل ." تزاحمت عصبة من الرجال والصبيان حول المركبة . سأل الرجل : " ألا تتفضلين إذن بزيارة السيدة تايلر ؟ " لكن الآنسة باريت لا رغبة عندها على الإطلاق بأن تزور السيدة تايلر ؛ غير أن امرأةً بدينة جداً خرجت من البيت الآن . " وهي من البدانة بحيث أنها لابد كانت ذات ضمير مطمئن طيلة حياتها " ، فأخبرت الآنسة باريت أن زوجها في خارج الدار : " قد يأتي خلال دقائق ، أو قد يستغرق مجيئه ساعات – ألا أود النزول والانتظار ؟ " وولسن تجرجر بذيل الآنسة باريت . وللمرء أن يتخيل مثل هذا الانتظار في بيت تلك المرأة ! فالجلوس في المركبة وعصبة الرجال والصبيان تتزاحم حولها كان بذاته شيئاً سيئاً جداً . وهكذا فإن الآنسة باريت تداولت مع " اللصة الأنثوية الضخمة " وهي في مركبتها . قالت : إن كلبها عند السيد تايلر ؛ والسيد تايلر وعد باعادته ؛ فهل سيأتي السيد تايلر بكلبها الى شارع وميول في هذا اليوم نفسه بالتأكيد ؟ " أوه نعم ، بالتأكيد " ، قالت المرأة البدينة وهي تبتسم بلطف بالغ . بل إنها تعتقد أن السيد

تايلر قد غادر المنزل من أجـل هذا الموضـوع دون غيره . كانـت " تهز رأسها يميناً وشمالاً باحتشام تام ."

وهكذا استدارت المركبة وتركت شارع مانتغ في شورديج . كان من رأي ولسن أننا " نجونا بالكاد بجلدنا " . كانت الآنسة باريت ذاتها قد أصابها الهلع . كتبت تقول : " كان من الواضح أن العصابة قوية هناك . والجمعية ، (الشبح) ... تمتد جذورها في الأرض ." كان رأسها يمور بالأفكار ، وعينـاها حاشدتان بالصور . هذا ، إذن ، ماهو كائن على الطرف الآخر من شارع ومپول – هذه الوجوه هذه البيوت . لقد شاهدت من الأشياء بقرب تلك الحانة وهي جالسة في المركبة أكثر مما شاهدت خلال خمس سنوات رقدت فيها في غرفتها الخلفية في شارع ومپول . قالت بعجب :" يالها وجوه أولئك الرجال ! " انطبعت تلك الوجوه على بؤبؤي عينيها ، وشحذت مخيلتها كما لم تشحذها قط " الطيوف الرخامية المقدسة " للتماثيل النصفية على رف الكتب . هناك تحيا نساء مثلها حياتهن وهي تستلقي هنا على الأريكة ، تقرأ وتكتب . لكن المركبة تجري الآن بين البيـوت ذات الطوابق الأربعة مرةً أخرى . ها هنا الجادة المألوفة من الأبواب والنوافذ : الآجر المصفوف ، ومطارق الأبواب النحاسية ، والستائر المعتادة . ها هنا شارع ومپول وهذه هي اللوحة رقم ٥٠ . قفزت ولسن تخرج من المركبة – بما يمكن تصوره من الارتياح وهي تجد نفسها محاطة بالسلامة والأمن . لكنْ لعل الآنسة باريت كانت قد ترددت هنيهةً . فهي لاتزال ترى " وجوه أولئك الرجال " . إنها وجوه ستعاود الظهور قبالتها بعد سنين حين جلست تكتب في شرفة

twitter @baghdad_library

مشمسة في إيطاليا . إنهاوجوه ستوحي لها بأزهى المقاطع في قصيدة Aurora Leigh (*) . لكن رئيس الخدم قد فتح الباب الآن . فمضت تصعد الى غرفتها .

كان السبت هو خامس الأيام التي قضاها فلاش في السجن. كان منهكاً ، لا حول له ولا طول ، وهو يقعي لاهثا في زاويته المظلمة من الأرض المحتشدة بالمخلوقات . أبواب تغلق وتصفق . إصوات خشنة تصيح . نسوة يزعقن . ببغاوات تثرثر كما لم تثرثر قط فلا تجيبها العجائز الشريرات الآن إلا بالشتائم . الحشرات تسري في لبدة فلاش ، لكنه كان من الضعف وعدم المبالاة بحيث لم ينفض جلدته .إن حياة فلاش جميعها ومشاهدها المتعددة – ردنغ ، سقيفة الخضروات ، الآنسة متفورد ، السيد كنيون ، رفوف الكتب ، التماثيل النصفية ، رسوم الفلاحين على الستارة – تلاشت كلها فهي تنوب كما تنوب رقائق الجليد في مرجل النار . ولئن كان يتشبث بأملٍ ما فإنما يتشبث بشيء لا إسم له ولاشكل ؛ يتشبث بالوجه العديم السمات لشخصٍ ما لايزال يدعوه " الآنسة باريت" . إنها لاتزال موجودة ؛ أما البقية الباقية من العالم فقد زالت ؛ لكنها باقيـة ، رغـم الهـوة السحيقة التى تفصـل بينهمـا بحيث

(*) كانت السيدة براوننغ قد نظمت هذه القصيدة وأوردت فيها وصفاً لحي من أحياء الفقراء في لندن وهو من أزهى مقاطع القصيدة ، ولو أن الوصف فيه يشو به التشويه الذي هو طبيعي بالنسبة الى فنانة رأت المشهد مرة واحدة فقط وهي جالسة في مركبة ذات أربع عجلات ، والوصيفة ولسن ممسكة برداء سيدتها تجره فزعاً . من الواضح أن السيدة براوننغ كان لديها خزين من حب الاستطلاع للحياة الانسانية لا تفيه حقه التماثيل النصفية لهومر وتشوسر فوق حوض التفسيل في غرفة نومها .

يستحيل أن تصل إليه بعد الآن . وبدأ الظلام يرخي سدوله مرةً أخرى ، ذلك الظلام الذي بدا له كأنه يسحق أمله الأخير – الآنسة باريت .

كانت قوى شارع وميول لاتزال في حقيقة الأمر ، حتى في هذه اللحظة الأخيرة ، تصارع للإبقاء على فلاش بعيداً عن الآنسة باريت . كانت هي بعد ظهر يوم الأحد مضطجعةً تنتظر مجيء تايلر ، كما وعدت المرأة البدينة جداً . أخيراً جاء ، لكنه لم يجلب الكلب . أرسل كلمة إليها – فلتدفع له الآنسة باريت ست جنيهات على الفور ، وسيذهب مباشرة الى وايت تشابيل ويأتي بالكلب ، وأقسم يقول : " بشرفي " . لا تستطيع الآنسة باريت أن تقدر قيمة شرف هذا الشخص ؛ لكنْ . " ليس هنـــاك طريقة أخرى في ما يبدو " ؛ فحياة فلاش مهددة بالخطر ؛ أحصت الجنيهات وأرسلتها الى تايلر الذي كان ينتظر في الرواق . غير أن المصادفة شاءت أمراً آخر ، فبينما كان تايلر ينتظر في الرواق بين مشاجب المظلات المطرية ولوحات النقوش والسجاد النفيس وغير ذلك من الأشياء الثمينة دخل ألفريد باريت . صدمته مشاهدة الإبليس الأعظم في بيته وأفقدته الصواب . انفجر غاضباً . دعاه " بالمحتال والكذاب واللص " . عند ذلك شتمه السيد تايلر بدوره . والأنكى من ذلك أنه أقسم يقول : " إننا لن نرى كلبنا مرة أخرى وإن كان هو شخصياً يريد إنقاذه "، وغادر البيت مسرعاً . إنن ، ستصل صباح اليوم التالي الرزمة الملوثة بالدماء .

قامت الآنسة باريت بارتداء ملابسها على عجل مرةً أخرى وهرعت نازلةً . أين هي ولسن ؟ فلتناد على مركبة . إنها ستذهب

twitter @baghdad_library

الى شورديج فوراً . وجاء أفراد أسرتها مسرعين لمنعها من الذهاب . فالظلام مقبل . وهي منهكة أصلاً . إن في المغامرة ما فيها من المخاطرة بالنسبة الى رجل معافى فكيف بإمرأة مريضة . المغامرة بالنسبة لها هي الجنون بعينه . هكذا قالوا لها . تنادى أشقاؤها وشقيقتاها جميعاً مهددين ، لأثنائها عما تريد ، "ويصيحون بي أنني مجنونة تماماً ، عنيدة ومتصلبة - رموني بنعوت تضاهي في عددها ما رموا به تايلر ." لكنها ثبتت على موقفها . أخيراً أدركوا مدى حماقتها . قرروا أن عليهم أن يتنازلوا لها مهما كان الخطر الناجم عن التنازل . وعدها شقيقها سبتيموس إذا جاء الوالد الى غرفتها " وكان بمزاج طيب " فإنه سيذهب بنفسه الى تايلر ويدفع المبلغ ويعود بالكلب .

وهكذا تلاشى غسق الخامس من أيلول وتحول الى ليل في وايت تشابيل . رُفس باب الحجرة ليفتح مرةً أخرى . حمل رجلٌ كث الشعر فلاش من جلدة قفا رقبته وأخرجه من الزاوية التي كان فيها . نظر فلاش في الوجه المريع لعدوه القديم ولم يعرف هل كان يؤخذ لكي يقتل أم لكي يطلق سراحه . ولم يكترث إلا بذكرى واحدة راودته كالسراب . انحنى الرجل . فيم تعبث تلك الأصابع الضخمة برقبته ؟ هل هي السكين أم السلسلة ؟ كان فلاش يتعثر معشياً وهو يسير على أرجلٍ مترنحة فاقتاده الرجل الى الهواء الطلق .

لم تكن الآنسة باريت وهي في شارع وميول قادرة على تناول عشائها . كانت حائرة لا تدري هل أن فلاش حي أم ميت . في الساعة الثامنة مساءً سمعت نقرة على الباب ؛ ظنتها الرسالة

المعتادة من السيد براوننغ . ولكن ما أن فتح الباب لتسلم الرسالة حتى اندفع شيء آخر يدخل أيضاً – فلاش . ذهب في الحال الى إنائه الأرجواني . تم ملؤه ثلاث مرات متوالية ؛ مع هذا فهو يشرب . كتبت تقول : " إنه لم يكن متحمساً لرؤيتي بالقدر الذي توقعته " . كلا ، لم يكن هناك إلا شيء واحد يريده في الدنيا – الماء النظيف .

على أية حال ، ما كان على الآنسة باريت إلا أن تلمح وجوه أولئك الرجال لمحاً خاطفاً حتى أخذت تتذكرهم طيلة حياتها . كان فلاش تحت رحمتهم وبين ظهرانيهم لمدة خمسة أيام بكاملها . أما الآن ، وهو يستلقي على الطنافس مرةً أخرى ، فالماء البارد هو الشيء الوحيد الذي يبدو له أن له جوهراً ، أن له واقعية . شرب باستمرار . إن الآلهة القدامى لغرفة النوم – رف الكتب ، خزان الملابس ، التماثيل النصفية – تبدو له كأنها قد فقدت جوهرها . هذه الغرفة لم تعد هي العالم بأسره ؛ إنها ليست سوى وهدة لاتحميها سوى ورقة مرتعشة واحدة من أوراق الخُبازَ في غابة تدب فيها الوحوش البرية وتسعى الأفاعي السامة ويترصد قاتلٌ متهيىء للانقضاض وراء كل شجرة . حين كان فلاش مستلقياً عند قدمي الآنسة باريت وقد هدّه الدوار والانهاك كانت صيحات الكلاب المربوطة وزعيق الطيور الفزعة لاتزال ترن في أذنيه . وكلما انفتح الباب جفل ، متوقعاً رجلاً كث الشعر يحمل سكيناً – فلا يكون القادم سوى السيد كينون يحمل كتاباً ؛ أو السيد براوننغ يحمل قفازاته الصفراء . لكنه الآن يبتعد عن السيد كنيون وعن السيد براوننغ . لم يعد يثق بهما . فخلف تلك الوجوه الباسمة ،

twitter @baghdad_library

المتوددة ، تختفي الخيانة والقسوة والخداع . إن مداعباتهم له جوفاء . وهو يتخوف حتى من السير مع الوصيفة ولسن الى صندوق البريد . إنه لن يتحرك إلا والسلسلة في رقبته . وحين يقولون : " يا لك من مسكين يا فلاش ، هل أخذك الأوغاد فأبعدوك ؟ " يرفع فلاش رأسه فيهرّ وينبح . وإذا سمع سوطاً يقرقع قفز مسرعاً ليختبىء تحت درجات السلم طلباً للأمن . وحين يكون في الغرفة فإنه يقترب ملتصقاً بالآنسة باريت على الأريكة ، هي وحدها لم تهجره . وهو لايزال يكنّ شيئاً من الثقة فيها . أخذ يشعر بالتدريج أن شيئاً من الجوهر قد عاد إليها . كان يستلقي على الأريكة عند قدميها وهو منهك ، مرتعش ، قذر ، ونحيل جداً .

ما أن مضت الأيام وأخذت ذكرى وايت تشابيل تتلاشى حتى أخذ فلاش ، وهو يستلقي لصيقاً بالآنسة باريت على الأريكة ، بقراءة مشاعرها بوضوح أكثر من أي وقتٍ مضى على الإطلاق . إنهما كانا قد افترقا ؛ والآن هما معاً . والحق انهما ما كانا أبداً على هذا النحو من الاقتراب . فكل جفلةٍ تجفلها ، وكل حركةٍ تتحركها ، تسري فيه كذلك . وهي تبدو الآن وكأنها تجفل وتتحرك على الدوام . حتى تقديم رزمةٍ ما إليها يجعلها تثب من مكانها . فتحت الرزمة ؛ أخرجت منها بأناملٍ مرتعشة حذاءً سميكاً . أخفته على الفور في زاويةٍ من خزان الملابس . ثم استلقت كأن شيئاً لم يحدث . وحين كانا وحدهما نهضت فأخرجت قلادة ماسية من المجر . وتناولت العلبة التي تحوي رسائل السيد براوننغ . وضعت الحذاء والقلادة والرسائل معاً في خُرج للسفر ومن ثم – كأنها قد سمعت خطى على السلم – دفعت بالخرج تحت السرير

واستلقت على عجل ، وهي تغطي نفسها بملفعها مرةً أخرى . وشعر فلاش أن أمارات السرية والتكتم هذه إنما تنبىء بأزمةٍ قادمة . هل هما على وشك الفرار معاً ؟ هل هما على وشك الهروب معاً للنجاة من هـــذا العالم الفظيـــع الموبوء بسراق الكلاب والطغـــاة ؟ ليت ذلك ممكناً ! إنه يرتعش ويهرّ بانفعال ؛ لكن الآنسة باريت دعته بصوتها المنخفض أن يكون هادئاً ، فهدأ على الفور . هدأت هي أيضاً هدوءاً تاماً . إنها على الأريكة عند مجيء شقيق لها أو شقيقة ؛ إنها تضطجع وتتحدث مع السيد باريت كما تتحدث مع السيد باريت على الدوام .

ولكن ، وفي يوم السبت ، الثاني عشر من أيلول ، قامت الآنسة باريت بفعل شيءٍ لم يعهد فلاش مثيله قط . فقد ارتدت ملابسها كأنها ستخرج بعد تناول الإفطار مباشرةً . كذلك عرف فلاش جيداً من ملامح وجهها ، وهو يراقبها إذ كانت ترتدي ملابسها ، أنه غير ذاهب معها . إنها عازمة على القيام بمهمة سرية تخصها هي بالذات . وفي الساعة العاشرة دخلت الوصيفة ولسن الغرفة . هي أيضـــاً كانت بملابس الخـــروج كأنها ذاهبة الى تجوال . خرجتا معاً ؛ استلقى فلاش على الأريكة وانتظر عودتهما . بعد ساعةٍ أو نحوها عادت الآنسة باريت بمفردها . لم تنظر إليه – بدت كأنها تنظر الى لاشيء . خلعت قفازها فرأى خاتماً ذهبياً يشع في إصبع من أصابع يدها اليسرى . ثم رآها تنزع الخاتم من يدها وتخفيه في ظلام المجر . بعدئذٍ راحت تستلقي كالعادة على الأريكة . فاستلقى فلاش بجانبها لايكاد يجرؤ على التنفس ، فمهما كان الشيء الذي حدث فقد كان شيئاً

twitter @baghdad_library

يجب اخفاؤه مهما كلف الأمر .

ومهما كلف الأمر فإن الحياة في غرفة النوم يجب أن تستمر كالعادة . مع هذا فقد كان كل شيء مختلفاً . إن الحركة ذاتها في الستارة وهي ترفرف الى الداخل والخارج تبدو لفلاش كأنها إشارة . الأضواء والظلال وهي تمر فوق التماثيل النصفية تبدو هي أيضاً كأنها تلمّح وتومىء . كل شيء في الغرفة يبدو كأنه على إدراك بوقوع تغيير ما ؛ على إدراك بالاستعداد لحدث ما . مع هذا كان كل شيء صامتاً ؛ كل شيء خفياً . الأشقاء والشقيقتان يدخلون الغرفة ويخرجون كالمعتاد ؛ السيد باريت يأتي في المساء كالمعتاد . إنه ينظر كالمعتاد ليرى أن قطعة اللحم قد أكلت ، وأن النبيذ قد احتسي . والآنسة باريت تتحدث وتضحك ولا تشي بأية علامة تنم عن إخفائها لشيء ، هذا حين يكون أحدٌ في الغرفة . أما حين يكونان بمفردهما فإنها تسحب الخرج من تحت السرير وتملؤه على عجل ، وبتختل ، وهي تصيخ السمع عند قيامها بذلك . أما علامات التوتر فقد كانت واضحةً لاتخطئها العين . ففي يوم الأحد كانت أجراس الكنيسة تدق . سأل أحدهم : " أية أجراس هذه ؟ " فقالت الآنسة هنريتا : " أجراس كنيسة مليربون " . رأى فلاش الآنسة باريت وقد امتقع لونها وحال الى بياض تام . أما الآخرون فلم يبد على أحد منهم أنه قد لحظ شيئاً .

وانصرمت الأيام : الإثنين ، ثم الثلاثاء فالأربعاء والخميس . أرخيت عليهم جميعاً سدول الصمت ، وتوالى تناول الطعام وتبادل الكلام والاستلقاء بسكون على الأريكة كالمعتاد . حلم فلاش ، وهو يتقلب في نومٍ قلق ، أنهما كانا يجثمان معاً تحت نباتات السرخس

وأوراق الشجر في الظلام ، في غابة شاسعة ؛ معتمة ؛ لكنه رأى ولسن تدخل خلسةً وتتناول الخرج من تحت السرير فتحمله بهدوء الى الخارج . كان ذلك ليلة الجمعة ، الثامن عشر من أيلول . وطيلة صباح السبت استلقى فلاش كما يستلقي إمرؤ ينتظر منديلاً يسقط ، أو صفيراً واطئاً ينطلق ايذاناً بالموت أو بالحياة . راقب الآنسة باريت ترتدي ملابسها . في الساعة الرابعة إلا ربعاً انفتح الباب ودخلت ولسن . إذن ، أعطيت الإشارة – الآنسة باريت ترفعه بين نراعيها . نهضت ومشت الى الباب . توقفا هنيهةً ينظران في أرجاء الغرفة . كانت هناك الأريكة والى جانبها مقعد السيد براوننغ الوثير . هناك التماثيل النصفية والمناضد . الشمس تنساب من أوراق اللبلاب ، والستارة ، برسوم الفلاحين يمشون ، ترفرف برفق الى الخارج . كان كل شيء كالمعتاد . كل شيء يبدو في انتظار استقبال الملايين من أمثال هذه الحركة وهي تكتنفها في مستقبل الأيام . أما الآنسة باريت وفلاش فقد كانت حركتهما هذه هي الأخيرة .. أغلقت الآنسة باريت الباب من ورائها بهدوء تام .

وبهدوءٍ تام تسلّلا ينزلان السلم ، فيمران بغرفة الجلوس ، بالمكتبة ، بقاعة الطعام . كلها بدت كما تبدو عادةً ؛ كلها تفوح بالرائحة التي تفوح منها عادةً ؛ كلها كانت ساكنة كأنها نائمة في عصر يوم حار من أيلول . وعلى حصيرٍ في الردهة يقعي كاتيلين نائماً أيضاً . بلغا الباب الخارجي ، وبهدوء تام أدير مقبض الباب . ثمة مركبة تنتظر في الخارج .

قالت الآنسة باريت : " الى محطة هوجسون ." قالت ذلك

twitter @baghdad_library

همساً . جلس فلاش على ركبتيها بسكون تام . ما كان له أن يقطع ذلك الصمت المطبق حتى لو عرض عليه أن يمتلك الدنيا بأسرها .

الفصل الخامس

إيطـاليا

تعاقبت على فلاش الساعات والأيام الطويلة من الظلمة والقرقعة ؛ من الأضواء المفاجئة ؛ ثم من الأنفاق الطويلة المعتمة ؛ وتعاقب عليه الألقاء به هنا وهناك ؛ ثم رفعه على عجل في الضياء ورؤيته لوجه الآنسة باريت من قريب ، ورؤيته للأشجار النحيفة وخطوط الكهرباء وسكك الحديد والبيوت العالية المرقطة بالضوء – ذلك أن العرف البربري للسكك الحديد كان يقضي في تلك الأيام بسفر الكلاب في صناديق . مع هذا لم يكن فلاش خائفاً ؛ فقد كانوا يفرون طلباً للنجاة ؛ كانوا يتركون الطغاة وسراق الكلاب وراء ظهورهم . همس فلاش : قرقع وقعقع ياقطار ؛ قعقع وقرقع كما تشاء ، والقطار يرميه الى هذه الجهة والى تلك ؛ وهمس : نحن لانريد منك إلا أن تجعل شارع ومپول ووايت تشاپيل وقد صارا خلفنا . أخيراً اتسع الضياء ؛ وتوقفت القرقعة . سمع تغريداً للطيور . وحفيفاً للاشجار . أم هل هذا ماء يتدفق ؟ ما أن فتح عينيه أخيراً ، ما أن نفض لبدته أخيراً ، حتى رأى – مشهداً من أغرب ما يمكن للخيال أن يتصور . ها هي الآنسة باريت تقف على صخرة وهي في وسط خضم من الماء الدافق . الأشجار تنحني فوقها ؛ النهر يجري من حولها . إنها لاشك في خطر . وبقفزة واحدة فجّ فلاش تيار الماء وبلغها . كتبت الآنسة باريت تقول إنه " ... قد تعمد بمياه پترارك " ، وكان فلاش قد صعد الصخرة ليقف إلى جانبها ، ذلك أنهم كانوا في ڤوكلوز ؛ كانت

twitter @baghdad_library

سيدته قد حطّت على حجرٍ في وسط نافورة بترارك .

ثم كان ثمة مزيد من القرقعة ومزيد من القعقعة ؛ من بعد ذلك أوقف على أرض ثابتةٍ لا تتحرك ؛ انقشع الظلام ؛ تدفق الضياء عليه ؛ وجد نفسه حياً ، يقظاً ، متحيراً ، يقف على بلاط مزجج يضرب بلونه الى الحمرة في قاعةٍ شاسعة جرداء تسبح في أشعة الشمس . تراكض هنـــا وهناك يتشمّم ويتلمّس . مامن سجاد وما من موقدٍ للنار . ما من أرائك ولا مقاعد وثيرة ، ولا رفوف كتب ، ولا تماثيل نصفية . ثمة روائح حادة وغير معتادة تدغدغ منخاريه فيبغته العطاس . أما الضياء ، وهو حاد وناصع الى أقصى الحدود ، فقد أعشى عينيه . إنه لم يدخل قط غرفة – إن كانت هذه غرفة حقاً – وهي على هذا النحو من الحدة والالتماع والضخامة والفراغ . بدت الآنسة باريت أصغر حجماً مما كانت عليه وهي تجلس على كرسي بجنب منضدةٍ في الوسط . عندئذٍ أخذته ولسن الى الخارج . وجد نفسه كأنه مكفوف العينين ، بفعل الشمس أولاً ثم بفعل الظل . نصف الشارع يتقد ساخناً ؛ النصف الآخر قارص البرد . النسوة يمضين مدثرات بالفراء ، مع هذا فإنهن يحملن المظلات الشمسية لحماية رؤوسهن . كان الشارع جافاً جفاف العظم . ومع أن الموسم هو الآن منتصف تشرين الثاني فليس هناك من طينٍ ولا وحل يبلل براثنه أو يبقّع رياشه . ليس هناك رحبات أمام عتبات البيوت ولا أسيجة تحيطها.

ليست هناك تلك البلبلة العنيفة من الروائح التي كانت تجعل السير في شارع وميول أو شارع أوكسفورد شيئاً يشتت الذهن كثيراً . من جهة أخرى كانت الروائح الجديدة الغريبة التي تنبعث

من الزوايا الحجرية الحادة ، من الحيطان الجافة الصفراء روائح حادة وغريبة على نحو فائق . عندئذٍ انبعثت من خلف ستارة دوّارة سوداء غمامة مدهشة من رائحة لذيـــذة ؛ وقف ، وقد ارتفعت براثنه ، ليستمتع بنكهتها ؛ راح يتبع الرائحة الى الداخل ؛ شق طريقه من تحت الستارة . لم يتسن له إلا أن يلمحُ شيئاً قليلاً فقط من قاعةٍ مدوّية يتطايـــر فيها الضياء . قاعةٍ عاليةٍ جداً ومجوفة جداً ؛ عندئذٍ سحبته ولسن سحباً عنيفاً وهي تصرخ به فزعاً . خرجا الى الشارع مرةً أخرى . كان ضوضاء الشارع يصم الآذان . كأن الجميع يصيحون في الوقت نفسه صياحاً حاداً . فبدلاً من الغمغمة الرصينة ، النعاسية ، التي تسود في لندن ثمة هنا قرقعة وصياح بجلجلة وعياط ، قعقعة سياط ورنين أجراس . وثب فلاش قافزاً الى هذه الجهة والى تلك ، وكذلك فعلت ولسن ، وقد اضطر الى ترك الرصيف والعودة إليه عشرات المرات لتجنب عجلةٍ للجر ، أو ثور ، أو كوكبة من الجنود ، أو قطيع من الماعز . شعر فلاش أنه أصغر سناً ، وأنشط حركةً مما كان عليه طوال السنين المتعددة من حياته . وعندما عادا بعد ذلك الانبهار والابتهاج خرّ فلاش على البلاط المزجج الضارب الى الاحمرار ونام نوماً أعمق كثيراً من نومه على الوسائد الوثيرة في غرفة النوم الخلفية بشارع وبول في لندن .

لكن فلاش سرعان ما أدرك الفروق الأعمق التي تميزّ پيزا – فهم أنما في پيزا يستقرون الآن – تمييزاً واضحاً عن لندن . الكلاب هنا مختلفة . ما أن كان فلاش يهرول في لندن الى صندوق البريد حتى يلاقي كلباً آخر أفطس الأنف ، أو كلب قنص ، أو كلب

twitter @baghdad_library

بلدُغ ، أو كلب حراسة ، أو كلب رعاة الغنم ، أو كلب كذا وكلب كيت ، أو كلباً من كلاب العشائر السبع الشهيرة من قبيلة الأسپانيولي . كان يعطي لكل منها إسماً مختلفاً ، ولكل منها مرتبة مختلفة . أما هنا في پيزا ، والكلاب فيها وفيرة العدد ، فلا توجد مراتب للكلاب ؛ كلها كلاب هجينة ، فهل هذا ممكن ؟ وبقدر ما يستطيع أن يرى فإنها كلاب وكفى – كلاب رمادية اللون ، كلاب صفراء ، كلاب مخططة ، كلاب مرقطة ؛ لكنّ من المستحيل التعرف على اسپانيولي واحد ، أو غنّام أو قناص أو حارس من بينهم جميعاً . ألا يتمتع نادي الوجار إذن بأية صلاحية في إيطاليا : هل أن نادي الكلب الاسپانيولي غير معروف هنا ؟ ألا يوجد قانون يقضي بالموت على ذبالة الشعر ، ويعتز بالأذن الملتوية ، ويصون القدم المريّشة ، ويصرّ كل الإصرار على أن الجبين يجب أن يكون مقبباً دونما بروز ؟ لايوجد مثل هذا القانون في مايظهر . شعر فلاش كأنه أمير في منفى . إنه الارستقراطي الوحيد بين جمهرة من الرعاع . إنه الاسپانيولي الكوكر الوحيد النقيّ السلالة في پيزا بأسرها .

كان فلاش ، على مدى سنين متعددة ، قد أعدّ لكي يعتبر نفسه أرستقراطياً . كانت شريعة الإناء الأرجواني وسلسلة الرقبة قد غارت عميقاً في روحه . ليس مستغرباً إذن أن يفقد توازنه . إن النوات من حملة الأسماء الرنانة لايلامون أذا نزلوا بين جمهرة من أبناء البلد القاطنين في أكواخ الطين فتذكروا ديارهم من الأحياء الراقية بين حينٍ وحين وفكروا آسفين بالسجاد الأحمر والشرفات المكسوّة بالتيجان عندما يتوهج الغروب من خلال النوافذ المزوقة

بالألوان . علينا أن نعترف أن هناك عنصراً من عناصر التكبرّ والتنفج في فلاش ؛ كانت الآنسة متفورد قد تبينت ذلك منذ سنين .إن هذا الشعور ، بعد أن كبت في لندن حين كان فلاش بين أقران متساوين معه ،أقران متفوقين عليه ، قد عاد إليه الآن إذ أخذ يحس بأنه فذ من الأفذاذ . لقد غدا متعالياً ومتغطرساً . كتبت السيدة براوننغ تقول : " إن فلاش قد أضحى ملكاً مطلقاً ، فهو ينبّه المرء بالنبح عليه إذا كان هذا غافلاً عندما يريده أن يفتح له الباب " وأردفت : " أما روبرت فيعلق أن فلاش المزبور يعتبره ، أي يعتبر زوجي ، إنما خلق من أجل غرض خاص ألا وهو القيام على خدمته ، والواقع أن الأمر يبدو شبيهاً بذلك نوعاً ما ."

" روبرت " ، " زوجي " – إذا كان فلاش قد تغيرّ فإن الآنسة باريت قد تغيّرت كذلك . ولا يقتصر الأمر على تسميتها لنفسها الآن باسم السيدة براوننغ ؛ وعلى أنها تعرض الخاتم الذهبي في يدها لامعاً في الشمس ؛ بل تغيرت كثيراً كما تغير فلاش . يسمعها هذا تقول " روبرت " ، " زوجي " سبعين مرة في اليوم ، وتقولها بنبرة افتخار دائماً ، فتجعل شعيرات رقبته تقف وقلبه يثب في مكانه . لا تقتصر المسألة على أن لغتها وحدها هي التي تغيرت ... إنها الآن شخص مختلف تماماً . بدلاً من رشفها لمقدار فنجان من نبيذ البورت حلو المذاق تعقبه شكوى من الصداع أخذت تكرع الآن دورقاً من نبيذ الكيانتي الأحمر ثم تنام نوماً هانئاً . أما على مائدة العشاء فثمة غصن كامل يزدهي بالبرتقال بدلاً من حبة واحدة كالحة تغيّر طعمها ولونها معاً . ثم انها بدلاً من ركوب المركبة الى متنزه ريجنت أخذت تنتعل حذاءها السميك

twitter @baghdad_library

وتتسلق الصخور سريعاً . وبدلاً من الجلوس في مركبة فارهة تتهادى في شارع أوكسفورد فالزوجان يذهبان الآن في عجلة صغيرة قديمة ، مقرقعة ، والى حدود بحيرة من البحيرات لتملي الجبال ؛ أما إذا تعبت هي فإنها لاتنادي على عجلة أخرى بل تجلس على حجر وترقب السحالي . إنها تستمتع بالشمس ؛ تستمتع بالبرد . إنها ترمي بأخشاب الصنوبر ، التي تجيء من غابة الدوق ، في النار إذا بلغ البرد حدّ الانجماد . إنهما يجلسان معاً في التوهج المقعقع ويتنشقان الشذا الزكيّ ، الحاد . وهي لاتكل ولا تمل من إطراء إيطاليا على حساب انكلترا . قالت في إحدى رسائلها وقد أخذها العجب " ... إن أهلينا الانكليز المساكين يحتاجون تثقيفاً لبلوغ المسرة . إنهم يحتاجون صقلاً لا بالنار بل بأشعة الشمس ." فهنا ، في إيطاليا ، الحرية والحياة والجذل الذي تلده الشمس . إن المرء لايرى هنا أبداً رجالاً يختصمون ، أو يسمعهم يتنابزون ؛ والمرء لايرى الإيطاليين سكارى أبداً ؛ – " وجوه أولئك الرجال " في شورديج كانت تتراءى أمام عينيها مرةً أخرى . إنها تقارن پيزا بلندن على الدوام وتفضل پيزا كثيراً . فالنساء الجميلات يستطعن السير بمفردهن في شوارع پيزا ؛ والسيدات العظيمات ينجزن أعمالهن المنزلية أولاً ثم يذهبن الى البلاط " وهنّ يتقدن بفخرٍ لايمارى " . إن پيزا بكل أجراسها ، وكلابها الهجينة ، وإبلها ، وغاباتها من شجر الصنوبر ، لهي أفضل بصورة مطلقة من شارع وميول وما فيه من أبواب خشب الساج ولحوم أكتاف الغنم . وهكذا كانت السيدة براوننغ تقوم في كل يوم ، وهي تكرع نبيذها الأحمر وتقطف

برتقالة أخرى من الغصن ، بمدح ايطاليا وقدح انكلترا المسكينة ، الخامدة ، الرطبة التي لا شمس فيها ولا مرح ، انكلترا الغالية الأسعار والمحافظة على التقاليد .

أما الوصيفة ولسن فقد حافظت على توازنها الأنكلوسكوني مدةً من الزمن . إن نكرى رؤساء الخدم والطوابق التحتية ، ذكرى الأبواب الخارجية والستائر ، كانت أشياء لاتنطمس في ذهنها بسهولة . لقد ظل ضميرها يأمرها بأن تخرج من متحف للصور " وقد صدمتها الخلاعة في لوحة ڤينوس " . وحين أتيح لها بفضل أحد الأصدقاء أن تسترق النظر من خلال الباب لترى الفخفخة في بلاط الدوق الأعظم فإنها ظلت تتمسك بإخلاص برأيها في علو المنزلة للفخفخة في بلاط سان جيمز .فقد ذكرت تقول : " إن كل شيء هنا هزيل جداً بالمقارنة مع البلاط الانكليزي " . لكنها عندما أمعنت بنظرها في ذلك البلاط الإيطالي صار أمام عينيها الجسم الرائع لحارسٍ من حراس الدوق الأعظم . عندئذٍ اشتعل خيالها ناراً ؛ وانقلب تقديرها للأمور على عقبيه ؛ وأطيح بموازينها عاليها سافليها . لقد شغفت للي ولسون حباً بالسنيور ريغي ، الجندي في حرس الدوق .(*)

(*) إن حياة للي ولسون Lily Wilson حياة مجهولة جداً ، وهي لهذا تستصرخ كتاب السيرة لتدوين سيرتها . فما من شخصية بشرية في رسائل السيد والسيدة براوننغ تثير فينا حب الاستطلاع وتراوغه أكثر مما تثيره هي ، باستثناء الشخصيات الرئيسة طبعاً . إن إسمها الأول هو للي ، وإسمها الأخير ولسن . هذا كل مانعرفه عن ميلادها ونشأتها . فهل جاءت من الريف ، أم من أحياء لندن الفقيرة ، أم من اسكتلندا ؟ لا ندري . لكن الطاهية التي يتبع

twitter @baghdad_library

تعمل في منزل آل باريت عرفتها معرفة حسنة كانت في صالحها من جراء ما تبديه من حشمة التصرف وما تظهره من نظافة الملبس ، حتى أنها حين جاءت الى البيت الكبير لقضاء عمل ما اختلقت السيدة باريت عذراً لدخول المطبخ في ذلك الوقت بالذات فأحسنت الظن بها بحيث عينتها وصيفة للآنسة أليزابيث . لقد كانت ، على أية حال ، في خدمتها وهي بهذه الصفة في سنة ١٨٤٦ . كانت " خادمة غالية الأجر " – كان أجرها ستة عشر جنيهاً استرلينياً في السنة . وبالنظر الى أنها تكاد تكون كفلاش لقلة كلامها فإن معالم شخصيتها ليست معروفة إلا قليلاً ؛ وبما أن الآنسة باريت لم تنظم فيها قصيدة قط كما نظمت في فلاش فإن الإلمام بسيمائها هو دون الالمام بسيمائه . مع هذا فإن من الواضح من إشارات وردت في الرسائل أنها كانت واحدة من أولئك الوصيفات الانكليزيات الرزينات ، اللائي هن على درجة نادرة المثال في التصرف السليم ، وكن في ذلك الزمن مفخرة الطابق التحتي الانكليزي حيث مثوى الخدم . ومن الواضح أن ولسن كانت متمسكة جداً بأصول الشكليات الرسمية . وكانت بلا شك تقدس " المرتبة " (التي تكنىّ بالغرفة) ، فهي تصر على أن يتناول خدم الطابق التحتي طعامهم في مكان وخدم الطابق الفوقي في مكان آخر . كل هذا انطوت عليه الملاحظة التي أبدتها حين ضربت فلاش بيدها قائلةً : " لأن ذلك هو الصواب " . مثل هذا الاحترام للعرف يولّد كما لايخفى فزعاً مفرطاً من أية مخالفة له ؛ لذا كانت حين واجهت الطبقات الدنيا في شارع مانتغ أشد رعباً من الآنسة باريت وأكثر وثوقاً من أن سرّاق الكلاب هم قتلة . في الوقت ذاته أظهرت الطريقة البطولية التي بها تغلبت على هلعها بذهابها مع الآنسة باريت بالمركبة مدى العمق المتغلغل فيها للتقليد الآخر الذي هو عرف الولاء . فحيثما ذهبتَ الآنسة باريت على ولسن أن تذهب أيضاً . وقد تم الافصاح عن هذا المبدأ إفصاحاً مظفراً بسلوكها عند هروب الآنسة باريت للزواج دون موافقة الأهل . كانت هذه ترتاب في شجاعة ولسن ؛ لكن ريبتها لم يكن لها من أساس . فقد كتبت تقول – وهذه هي آخر كلمات لها سطرتها على الاطلاق في رسالة الى السيد براوننغ كتبتها بصفتها الآنسة باريت – " إن ولسن كانت مثالية نحوي . وإني ... أنا التي أدعوها بـ (الخجولة) وأتخوف من خجلها بدأت أتصور أنه ما من أحد أجسر من الخجول ، إذا ما أثير على نحوٍ جيد " . ومن المفيد ، استطراداً ، أنّ نلم هنا سريعاً بالتقلقل المفرط في

حياة الخدم . فلو أن ولسن لم تذهب مع الآنسة باريت فإنها كانت ، كما تعرف هذه الأخيرة ، " سترمى في الشارع قبل غروب الشمس " ، وليس معها سوى دراهم معدودات تم توفيرها في أغلب الظن من أجرها السنوي البالغ ستة عشر باوناً . ماذا كان سيؤول إليه مصيرها ؟ وبما أن أدب الرواية الانكليزية في أربعينات القرن الماضي لم يبحث إلا نادراً في حياة وصيفات السيدات ، كما أن كتابة السير لم تسلط آنئذٍ ضوءها الكشاف على طبقات الخدم ، فالسؤال يظل بدون جواب . لكن ولسن أقدمت على المغامرة . وأعلنت أنها "ستذهب الى أي مكان في العالم معي " . لقد تركت الطابق التحتي ومذهب الغرفة بما ينطوي عليه من تسلسل المراتب وذلك العالم كله في شارع ومبول ، الذي يعني لولسن الحضارة كلها والتفكير السليم كله والحياة الكريمة كلها ، وأبدلت ذلك بالفجور المتوحش والإلحاد السائدين في بلاد أجنبية . ما من شيء هو أكثر إثارة للفضول من مراقبة التصادم الذي جرى في إيطاليا بين تهذيب ولسن الانكليزي وبين مشاعرها الطبيعية . لقد قرعت البلاط الإيطالي ؛ وصدمتها التصاوير الايطالية . لكنها وإن " صدمتها الخلاعة في لوحة ڤينوس " فإن مما يسجل لصالحها حقاً هو ما دار في خلدها من أن النساء إنما هنّ عاريات فعلاً حين يخلعن ملابسهن . ولعلها قالت في نفسها : إني أنا شخصياً عارية زهاء ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ يومياً . وهكذا " فإنها ترى إنها ستحاول مرةً أخرى ، وقد ينحسر عنها الخفر المزعج ، من يدري ؟ " ومن الواضح أن هذا الخفر قد انحسر سريعاً . إنها سرعان ما أخذت تستحسن إيطاليا ؛ وليس هذا فقط بل وقعت في غرام السنيور ريغي من الحرس الخاص للدوق الأعظم – " كلهم رجال محترمون جداً ونوو أخلاق عالية ، مع قوام يبلغ طوله فيما يبلغ ستة أقدام ." – وكانت تضع في أصبعها خاتم الخطوبة . كما كانت ترفض شخصاً من لندن كان يطلب يدها ، وبدأت تتعلم الكلام بالإيطالية . ثم تلبدت غيوم معلوماتنا مرةً أخرى ؛ وحين انقشعت نجد ولسن وقد هُجرت – " إن ريغي الخؤون قد رجع عن خطوبته من ولسن " . وتحوم الشكوك حول أخيه ، وهو بائع جملة يتاجر ببيع القمصان الرجالية والأربطة وغير ذلك في مدينة براتو . فحين استقال ريغي من حرس الدوق الخاص أصبح اتباعاً لنصيحة أخيه بائعاً للمفرد في تلك التجارة . وسواءً كان عمله يتطلب من زوجته العلم بالبيع والشراء ، أم أن إحدى الفتيات من بلدة براتو

twitter @baghdad_library

استطاعت توفير هذا العلم ، فإن من المؤكد أن ريغي لم يكتب الى ولسن بالقدر اللازم الذي كان يجب أن يكتب لها فيه . ولكن ما هو سلوك هذا الرجل المحترم جداً ، ذو الأخلاق العالية الذي دعا السيدة براوننغ الى أن تكتب بعجب في ١٨٥٠ " إن ولسن قد نسيت الأمر كلياً ، ويسجل هذا لصالح إدراكها السليم ومتانة شخصيتها . كيف يمكنها الاستمرارفي حب " رجل كهذا " – أما كيف تقلّص ريغي الى " رجل كهذا " بمثل هذا الوقت القصير فهو ما يتعذر بيانه . أما ولسن ، وقد هجرها ريغي ، فقد تعلقت إكثر فأكثر بأسرة براوننغ . إنها أخذت تقوم ليس فقط بواجبات وصيفة السيدة ، بل أخذت تعدّ المعجنات وتخيط الملابس ، وإصبحت مربية مكرسة لخدمة الابن الرضيع بنيني ؛ حتى أن الرضيـــع نفسه رفعها بمرور الزمن الى مرتبة الأسرة ، حيث تنتمي بحق ، ورفض أن يناديها إلا باسم للي . وفي ١٨٥٥ تزوجت ولسن من المدعو رومانيولي ، الخـــادم في بيت براوننغ ، " الرجل الطيب ، الرقيق القلب " ؛ وقد قام كلاهما لفترة من الوقت بشؤون المنزل لآل براوننغ . هذا وفي سنة ١٨٥٩ وافق روبرت براوننغ " على القبول بالعمل قيّماً على (لاندور) [١٧٧٥–١٨٦٤ ، وهو كاتب اشتهر إبان حياته بشعره ومسرحياته وكتاباته النقدية ، وله مؤلفات كثيرة في كل ذلك ، وكان مشهوراً بحدة مزاجه منذ صغره مما ورطه في مشاكل كثيرة لم تكن أقلها مسألة طرده من جامعة أوكسفورد وهو بعد تلميذ فيها] ، والعمل قيماً على شخص كهذا عمل حساس جداً وينطوي على مسؤولية كبيرة لأن عادات لاندور معقدة ؛ فقد كتبت السيدة براوننغ تقول : " ليس في لاندور مـــن الاعتدال سوى قيراط واحد ، وفيه من الشكوك قراريط " . في هذه الظروف عينت ولسن " وصيفة " له ، براتب سنوي قدره إثنان وعشرون پاوناً استرلينياً " بالإضافة الى ما يتبقى من جرايات الأرزاق الخاصة به " . وازداد راتبها فيما بعد الى ثلاثين پاوناً ، ذلك أن العمل كوصيفة " لأسد هرم " يتمتع " بإنفعالات نمرة " ، ويلقي بصحنه الى خارج النافذة أو يرميه على الأرض إذا لم يرق له العشاء ، ويشك بالخدم ويتهمهم بالتفتيش في أشيائه ، إنما هو عمل يجر وراءه برأي السيدة براوننغ " أخطاراً معينة ، وأنا شخصياً لا أفضل التعرض لها ." أما بالنسبة الى ولسن ، التي عرفت شخصية الوالد السيد باريت وعرفت تحضيرالأرواح ، فإن بضعة صحون تتطاير من النافذة أو ترمى على الأرض إنما هي أمور

قليلة الأهمية وتعتبر الأخطار التي تنطوي عليها شيئاً يدخل في نطاق العمل اليومي المعتاد .

على أن أيام العمل المستمرة تلك كانت أياماً غريبة كما تبدو لنا الآن . وسواءً كانت تلك الأيام قد بدأت في قرية ما انكليزية نائية أم في غيرها فإنها انتهت في قصر ريزونيكو في فينيسيا . كانت ولسن لاتزال هناك في الأقل حيةً ترزق في سنة ١٨٩٧ ، أرملةً في بيت الصبيّ الصغير الذي ربته وأحبته – السيد باريت براوننغ . لعل يوم العمل ذاك كان غريباً بنظرها وهي تجلس وتحلم أمام الغروب الفينيسي القاني وقد بلغت من العمر عتياً ، تخيلت صديقاتها المتزوجات من عمال المزارع وهن لازلن يجرجرن أقدامهن في الدروب الريفية الانكليزية لجلب قدحٍ من البيرة . أما هي فقد فرت مع الآنسة باريت الى إيطاليا حين أرادت الزواج دون موافقة أهلها . وشهدت شتى الأنواع من الأحداث الغريبة – شهدت ثورات ، وجنوداً في حرسٍ خاص ، وأرواحاً تستحضر ؛ كما شهدت السيد لاندور يرمي بصحنه من النافذة . ثم ماتت السيدة براوننغ – فما كان ليعوز ولسن إلا أن تفكر بخواطرها وهي جالسة قرب النافذة في قصر ريزونيكو ساعة الأصيل . ولكنّ لايمكن لشيءٍ أن يكون أكثر عبثاً من ادعائنا بأننا نستطيع أن نتصور تلك الخواطر أو نخمن ماكانت عليه – ذلك أن ولسن كانت نموذجاً صادقاً للجيش العرمرم من مثيلاتها – وصيفات الخدمة المبهمات ، الصامتات ، غير المرئيات ، اللاتي عج بهن الزمن على مدى التاريخ . إن كلمات سيدتها عنها تليق بها كشاهدٍ لقبرها : " ليس هناك من قلب هو أكثر أمانةً وصدقاً ووداً من قلب الوصيفة ولسن ."

twitter @baghdad_library

وكما كانت السيدة براوننغ تستكشف حريتها الجديدة وتستمتع باكتشافاتها ، كان فلاش أيضاً يقوم باكتشافاته ويستكشف حريته . وكان ، قبل أن يتركوا بيزا – فقد انتقلوا في ربيع ١٨٤٧ الى فلورنسا – قد واجه الحقيقة الغريبة ، والمثبطة في البداية وهي أن قوانين نادي الوجار ليست عامة ولا هي سارية في كل مكان . فوطن نفسه على الإقرار بأن نبالة الشعر الرقيقة هي ليست بالضرورة كارثة . وقام بتعديل شرعته وفقاً لذلك . أخذ يطبق مفهومه الجديد عن المجتمع الكلبي بشيء من التردد في الابتداء . أخذ يصبح دمقراطياً إكثر فاكثر يوماً بعد يوم . وقد لاحظت السيدة براوننغ أنه كان حتى في بيزا " يخرج يومياً ويتكلم الايطالية مع الكلاب الصغيرة . ثم سقطت عنه ، وهم في فلورنسا الآن ، آخر البقايا من أغلاله القديمة . حدثت لحظة التحرر ذات يوم في كاسين ". كان فلاش يجـــري فـوق العشب " الشبيه بالزمرّد " و" طيور الحجل تتطاير ملؤها الحيوية " ، فتذكر فجأة متنزه ريجنت ولوحته التي تعلن ان الكلاب يجب ان تقاد بسلسلة . اين هي كلمة " يجب " الآن ؟ أين هي " السلسلة " الآن ؟ أين هم حراس المتنزه وهراواتهم ؟ ذهبت كلها مع سراق الكلاب ونوادي الوجار ومنتديات الكلاب الإسپانيولية التي تعود الى أرستقراطية فاسدة ! ذهبت مع المركبات ذات العجلات الأربع والمركبات ذات العجلتين ! مع وايت تشاپيل وشورديچ ! ركض وجرى ؛ لبدته تسطع ؛ عيناه تتقدان . إنه الآن صديق الدنيا كلها . الكلاب كلهم إخوته . إنه ليس بحاجة الى سلسلة الرقبة في هذا العالم الجديد ؛ ليس بحاجة الى حماية . أما إذا تأخر السيد براوننغ عن أخذه

الى مشيته – فهو وفلاش الآن من خيرة الأصـــدقاء – فإن فلاش " يقف أمامه وينبح بغطرسة تامة " ، فهكذا لاحظت السيدة براوننغ بشيء من الانزعاج – ذلك أن علاقاتها معه أضحت الان اقل عاطفيةً بكثير مما كانت عليه في الأيام الخالية ؛ إنها لم تعد بحاجة الى فرائه الأحمر والى عينيه البراقتين للتزود بما ينقصها في تجريتها ؛ لقد وجدت لنفسها الآله پان بين عرائش الكروم وأشجار الزيتون ؛ والإله پان هناك أيضاً بجنب الموقد حين تذكى فيه النيران بأخشاب الصنوبر مساء . وهكذا فإذا تسكّع السيد براوننغ وقف فلاش ونبح ؛ أما إذا فضّل السيد براوننغ البقاء في الدار والكتابة ، فلابأس . إن فلاش مستقل الآن . المتسلقات العنقودية تزهر على الجدران ؛ الأقحوان الأرجواني يتقد التماعاً في الحدائق ؛ والزنابق البرية تتناثر في الحقول . ففيم الانتظار ؟ إنه ينطلق عدواً بمفرده . إنه سيد نفسه الآن . كتبت السيدة براوننغ تقول : " إنه يخرج الآن بمفرده ، ويظل في الخارج ساعات ... ويعرف كل شارع من شوارع فلورنسا – ويصر على أن يفعل كل شيء كما يشاء . وأنا لا أفزع أبداً إذا طال غيابه . " كتبت ذلك وهي تتذكر باسمةً تلك الساعات من المعاناة في شارع وپول والعصابة التي تنتظر لتستل كلبها من تحت حوافر الخيل إذا نسيت أن تربطه بالسلسلة لتقوده في شارع قير . إن الخوف غير معروف في فلورنسا ؛ ولا يوجد هنا سرّاق للكلاب ؛ ولعلها تنهدت وقالت أيضاً : ولا يوجد هنا آباء .

أما إذا أردنا الصراحة فإن فلاش لم يكن يفر راكضاً حين يُترك باب " كازا غيدي " مفتوحاً ليذهب فيحدّق بالتصاوير أو ينفذ

twitter @baghdad_library

الى داخل الكنائس المعتمة لمشاهدة الجصيات القاتمة . إنما كان ذلك للتمتع بشيءٍ حرم منه طوال هذه السنوات والبحث عن هذا الشيء . كان بوق الصيد الذي تحمله ڤينوس قد صدح ذات مرة بموسيقاه المتوحشة فوق الحقول في بركشاير ؛ وأحب فلاش كلبة السيد پارتريج فحملت منه . وهو الآن يسمع الصوت نفسه يصطرخ في شوارع فلورنسا الضيقة ، لكنْ على نحوٍ أكثر إلحاحاً وأشد عنفاً ، بعد هذه السنين الطويلة من الصمت . إن فلاش يعرف الآن شيئـاً لايسـع الناس أن يعرفوه أبداً – يعرف الحب نقياً ، الحب بسيطاً ، الحب كلياً ؛ الحب الذي لايخلّف عقابيل من الهم ؛ الحب الذي ليس فيه معرّة ، ولا ندم ؛ الحب الذي هو هنا ثم يمضي ، كالنحلة على الزهرة هنا ثم تمضي . واليوم الزهرة وردة وغداً زنبقة ؛ وحيناً هي الشوك البري على أرض السبخ وحيناً آخر هي زهرة الأوركيد الكيسية المنتفخة في بيت الزجـاج . وفلاش يحتضن في الزقاق بتنوعٍ مفرط ، وعدم اكتراث شديد ، الإسبانيولية المرقطة ، والكلبة الرمادية المخططة والكلبة الصفراء – لايهم النوع . كلها بالنسبة الى فلاش هي هي . إنه يتعقب البوق حيثما صدح وحملت صدحه الرياح . إن الحب هو كل شيء ؛ والحب يكفي . وما من أحدٍ يلوم فلاش على مغامراته الطائشة . أما السيد براوننغ فكان يكتفي بالضحك فقط قائلاً حين يعود فلاش متأخراً جداً في الليل أو باكراً صباح اليوم التالي : " إن تصرفه مدعاة للعار والشنار بالنسبة الى كلبٍ محترم مثله " . كانت السيدة براوننغ تضحك أيضاً حين يأتي فلاش فيرمي بنفسه على الأرض في غرفة النوم وينام نوماً عميقاً على شعار أسرة

غيدي المحفور في الرخام .

ذلك أن الغرف في كازاغيدي كانت عارية . لقد تلاشت الأشياء التي كانت مكسوّة في أيامه المحصنة والمنعزلة . فالسرير هنا هو سرير؛ وطاولة التغسيل هي طاولة التغسيل . كل شيء هو نفسه بذاته وليس شيئاً آخر . كانت غرفة الجلوس في كازاغيدي كبيرة تتناثر فيها بضعة كراسٍ قديمة من الأبنوس المحفور . فوق الموقد مرآة معلقة وعلى جانبيها تمثال لكيوپيد لرفع المصابيح . السيدة براوننغ نفسها قد طرحت ملافعها الهندية . إنها ترتدي بردة من حرير رقيق لماع يحبها زوجها . شعرها مصفف بطريقة جديدة . وحين تغيب الشمس وترفع الستائر فإنها تسير في الشرفة بثوب من الموسلين الأبيض الرقيق . كانت تحب الجلوس هناك أيضاً ، تنظر وتصغي وتراقب الناس في الشارع .

لم يمض على وجودهم في فلورنسا وقت طويل حتى سمعوا ذات ليلة صياحاً ووقع أقدام تدك الشارع وضجيجاً متعالياً فهرعوا الى الشرفة ليروا ماذا حدث . كان هناك جمهور كبير يموج بعضه في بعض من تحتهم . أناس يحملون رايات ويصيحون ويغنون . النوافذ كلها حاشدة بالوجوه ؛ الشرفات كلها حاشدة بالأجساد . الذين في النوافذ يرمون الأزهار وأوراق الغار على الذين في الشارع ؛ والذين في الشارع – رجال جادون ، فتيات مرحات – يقبّل أحدهم الآخر ويرفعون أطفالهم الى الذين في الشرفات . انحنى السيد والسيدة براوننغ على سياج الشرفة وصفقا باستمرار . مرت من تحتهم رايةٌ بعد أخرى . المشاعل تلقي بنورها عليهما . كان مكتوباً على إحدى الرايات " الحرية " ؛

twitter @baghdad_library

وعلى أخرى " وحدة إيطاليا " ؛ ثم " ذكرى الشهداء " و " يعيش بيو الأول " و " يحيا ليوبولد الثاني " - والرايات تمر من تحتهم زهاء ثلاث ساعات ونصف الساعة والناس يهتفون والسيد والسيدة براوننغ واقفان في الشرفة بجانب ستة شموع مشتعلة ، وهما يلوحان باستمرار . حاول فلاش أيضاً أن يبتهج ما وسعه الابتهاج وهو محشور بينهما وبراثته فوق رفراف الشرفة . لكنه تثاءب أخيراً ، ولم يستطع إخفاء ذلك . لاحظت السيدة براوننغ ذلك فكتبت تقول : " إنه اعترف أخيراً بأنهم أطالوا الأمر نوعاً ما " . وتملكه ضجر من ذلك ، وريبة فيه ، وأحس بالتبذل يستولي عليه .سأل نفسه فيم كل هذا ؟ من هو هذا الذوق الأعظم وما الذي وعد به ؟ ولماذا يهيج هؤلاء جميعاً على هذا النحو الأخرق ؟ - ذلك أن حماسة السيدة براوننغ ، وهي تلوّح وتلوّح باستمرار عند مرور الرايات ، قد أزعجته الى حد ما . شعر أن مثل هذه الحماسة لذوق أعظم مبالغ فيها الى حدٍ ما . عندئذٍ ، وحين مرّ الذوق الأعظم من أمامهم ، إنتبه فلاش الى كلبـــة صغيرة تقف عند الباب . انتهز فرصة إنشغال السيدة براوننغ بحماستها غير الاعتيادية وانسل نازلاً من الشرفة وخرج . تعقب الكلبة بين الرايات والجماهير . الكلبة تفرّ بعيداً وتتوغل في قلب فلورنسا . جاء صدى الصياح من بعيد ؛ وتلاشت هتافات الناس وساد الصمت . اطفئت أنوار المشاعل . لم يبق ساطعاً إلا نجم أو نجمان يشعان في رقراق مياه نهر الأرنو حيث استلقى فلاش مع الاسپانيولية المرقطة بجانبه ، وهما مضطجعان في سلة قديمة مهملة على الطين . هنالك اضطجعا ينتشيان بالحب الى أن

ارتفعت الشمس في السماء . لم يعد فلاش حتى الساعة التاسعة صباح اليوم التالي ، فاستقبله كل من السيد والسيدة براوننغ على نحوٍ ساخر الى حدٍ ما – فقد دار في خلد السيدة أنه كان عليه في الأقل أن يتذكر أن الأمس كان الذكرى الأولى لعيد زفافها . لكنها افترضت " أنه كان قد استأنس كثيراً ". وكان ذلك صحيحاً . ففي حين وجدت هي الرضا الذي يتعذّر تعليله في ضجيج الآلاف من الناس ، وفي وعودٍ يطلقها أدواق عظام ، وفي طموحات طنانة فارغة تموج بها شعارات الأعلام ، فضل فلاش الكلبة الصغيرة لدى الباب تفضيلاً مطلقاً .

لاريب أن كلاً من السيدة براوننغ وفلاش كان يتوصل الى نتائج مختلفة من رحلته الاستكشافية – هي تكتشف نوقاً أعظم ، وهو يكتشف كلبة اسپانيولية مرقطة – مع هذا فإن الصلة التي تربطهما معاً كانت لاتزال تربطهما بلامراء . ولكن ما أن ألغى فلاش كلمة " يجب " من قاموسه وأخذ يعدو حراً في العشب الزمردي لحدائق كاسين حيث يرفرف الحجل أحمر وذهبياً ، حتى شعر بشيء يكبحه ، فاضطره الى النكوص مرةً أخرى . لم يكن الأمر في بدايته شيئاً ذا بال – ما هو إلا تلميح محض – لاشيء سوى أن السيدة براوننغ غدت في ربيع ١٨٤٩ منهمكة بالخياطة بالإبرة . مع هذا كان هناك شيء في الأفق جعل فلاش يتوقف متأملاً . لم تكن السيدة متعودة على الخياطة . ثم لاحظ أن ولسن قد نقلت سريراً وفتحت مجراً وضعت في داخله ملابس بيضاء . كان ، وهو يرفع رأسه من البلاط المزجج على الأرض ، ينظر الى مايجري ويصغي بانتباه . هل من شيء على وشك الحدوث مرة

twitter @baghdad_library

أخرى ؟إنه يتطلع بقلق بحثاً عن علامات تنبىء بصناديق ، وبرزم للأشياء . هل سيكون هناك فرار آخر ؟ هروب آخر ؟ ولكنْ هروب من ماذا ؟ الى ماذا ؟ لايوجد هنا شيء يخشى منه ، هكذا طمأن السيدة براوننغ . ولاحاجة لأيٍ منهما أن يقلق نفسه في فلورنسا بشأن السيد تايلر وقفص الكلاب الملفوفة في رزمٍ من الورق الأسمر . مع هذا فقد كان متحيراً . إن علامات التغيير ، كما قرأها ، لا تفيد الهرب . إنها تفيد التوقع ، وهو أمر أكثر غموضاً . شعر أن شيئاً ما آتٍ ومحتم ، وهو يرقب السيدة براوننغ تدرز بأبرتها درزاً وهي تجلس في مقعدها الواطىء بهدوء ورياطة جأش تامين وإن بصمت وثبات : ثمة شيء آت لكنه شيء مفزع . مضت الأسابيع والسيدة براوننغ لاتكاد تغادر المنزل . إنها تبدو ، وهي تجلس في مقعدها ، كأنها تنتظر حدثاً بالغ الأهمية . هل هي على وشك المواجهة مع أحدٍ مثل تايلر المتوحش فتتيح له بأن يمطرها بوابل من الضربات وهي وحيدة ، وبلا عون ؟ ارتجف تهيباً من هذه الخاطرة . إنها بالتأكيد لا تنوي الهروب . مامن صناديق حزمت . وما من علامة تنبيء بأن أحداً على وشك أن يترك البيت – لا بل هناك علامات تشي بأن أحداً ما قادم . إن فلاش في قلقه الغيور يتفحص كل قادم جديد . هناك كثيرون منهم الآن ، من النساء والرجال بضمنهم السيد لاندور نفسه ، فهذا العدد الكثير من السيدات والسادة يأتي الآن الى كازا غيدي على الدوام . أما السيدة براوننغ فهي تجلس في مقعدها يوماً بعد يوم تدرز الثياب بهدوء .

فيما بعد ، وذات يومٍ من أوائل آذار ، لم تظهر السيدة

براوننغ في غرفة الجلوس . ثمة أناس آخرون يدخلون ويخرجون ؛ السيد براوننغ وولسن دخلا وخرجا ؛ وقد دخلا وخرجا بذهول عظيم حتى أن فلاش اختبأ تحت الأريكة . ثمة أناس يضربون الأرض بأقدامهم صعوداً ونزولاً على السلم ، يتراكضون ويتنادون متهامسين بأصوات مكبوتة ، غير مألوفة . انهم يتحركون في غرفة النوم في الطابق الأعلى . زحف فلاش مبتعداً عن ظل الأريكة . إنه يعرف ، بما أوتي من إحساس يجـــري في عروقه كلها ، أن تغييراً ما يجري – حدثاً ما فظيعاً يحدث . كان قد انتظر على هذه الشاكلة ، قبل سنين ، خطى الرجل المقنع على السلم . عندما انفتح الباب يومذاك صاحت الآنسة باريت : " سيد براوننغ ! " فمن هو القادم الآن ؟ أي رجل مقنع ؟ ما أن تقدم النهار حتى ترك بمفرده ؛ ما من أحدٍ دخل الى غرفة الجلوس . أقعى فيها بلاطعام ولاشراب . لعل ألف كلبةٍ اسپانيولية مرقطة كانت تتشمّم عند الباب وهو يتوارى عنها . فقد اعتراه شعور طاغ مع مرور الوقت بأن شيئاً ما يشق طريقه بالقوة الى المنزل من الخارج . كان يسترق النظر من تحت أهداب غطاء الأريكة . بدا له تمثالا كيوپيد الممسكان بالمصابيح وخزانات الأبنوس والمقاعد الفرنسية ممزقة كلها إرباً إرباً ؛ شعر بأنه إنما يدفع دفعاً الى الجدار ليفسح محلاً لشيء آخرلايستطيع أن يراه . رأى مرةً السيد براوننغ ، لكنه لم يكن السيد براوننغ نفسه ؛ رأى مرةً ولسن لكنهـــا تغيرت هي أيضاً – كأنهما يريان الشبح غير المرئي الذي يحسّه . إن عيونهما مطلية بطلاء لامع على نحوٍ غريب .

أخيراً جاءت ولسن – متوردة الوجه ، رثيثة الملابس ، لكنّ

twitter @baghdad_library

عليها مسوح الظفر . حملته بين ذراعيها وصعدت به الى الطابق الأعلى . دخلا غرفة النوم . ثمة ثغاء خافت في الغرفة الظليلة – ثمة شيء يترجرج على الوسادة . إنه حيوان حي . والسيدة براوننغ قد غدت من ذاتها ، وهي في الغرفة بمفردها ، شخصين إثنين دون تدخل من أحد ودون أن ينفتح الباب المؤدي الى الشارع . كان هذا الشيء الفظيع يترجرج ويموء بجانبها . استبد بفلاش الغضب والغيرة والاشمئزاز على نحوٍ شديد التأثير . لم يستطع اخفاء ذلك فأفلت محرراً نفسه وهرع الى الطابق التحتي . نادته ولسن والسيدة براوننغ لكي يعود ؛ أغريتاه بالتدليل ؛ قدمتا له أشياء مما يشتهي ؛ ولكن دون جدوى . إنه يقعي بعيداً عن المشهد المثير للاشمئزاز ، عن الشبح المنفر ، حيثما وجد أريكة ذات ظل وزاوية مظلمة . "... ذلك أنه هوى مدة أسبوعين كاملين في أعماق سوداوية سحيقة ولم يستجب لأغراء الرعاية التي أغدقت عليه بأنواعها " هكذا قالت السيدة براوننغ فقد لاحظت ما أصاب فلاش رغم مشاغلها الأخرى . إننا حين نأخذ الدقائق والساعات الانسانية ونسقطها في عقل الكلب نرى أن الدقائق تنتفخ الى ساعات والساعات الى أيام ، فلن نبالغ إذن إذا استنتجنا أن " سوداوية فلاش العميقة جداً " دامت ستة أشهر كاملة حسب الساعة الإنسانية . إن كثيراً من الرجال والنساء ينسون ما يكرهون وما يحبون بمدة أقصر .

لكن فلاش لم يعد ذلك الكلب الفطري ، المستجد ، الذي كان عليه أيام شارع ويمبول . لقد تعلم الدرس . كانت الوصيفة ولسن قد ضربته ، وكان قد أجبر على أن يزدرد الحلوى البائرة بعد أن

تغيّر طعمها وكان بوسعه أن يأكلها طازجة ، فأقسم أن يحب وألاّ يعض . كل هذا اصطخب في رأسه وهو يستلقي تحت الأريكة ؛ وأخيراً خرج فكوفىء مرةً أخرى . ولا بد من الإقرار بأن المكافأة كانت في الابتداء غير جوهرية إن لم نقل غير مقبولة يقيناً . فالطفل يوضع على ظهره ويكون على فلاش أن يهرول به والطفل يسحب أذنيه . لكنه استسلم مؤثراً الخلق الكريم ، فهو لايفعل سوى الاستدارة حين تسحب أذناه " لكي يقبّل القدم الصغيرة ، الحافية ، البضةً ، حتى أن هذه الكتلة العاجزة ، الضعيفة ، المولولة ، مالبثت قبل انقضاء ثلاثة أشهر أن صارت تفضله بصورة عامة على الناس الآخرين " كما قالت السيدة براوننغ . ثم ان فلاش وجد أنه يقابل مودة الطفل بمثلها ، وهذا أمر من الغرابة بمكان . أليس فيهما مايشتركان فيه ؟ ألا يشبه الطفل على نحوٍ ما من وجوه متعددة ؟ ألا يحملان الآراء نفسها والأذواق نفسها ؟ مثلاً ، في أمر المناظر الطبيعية . كانت هذه المناظر كلها بالنسبة الى فلاش غير مشوقة ولامتعة فيها . إنه لم يتعلم قط ، طيلة هذه السنين ، أن يركز عينيه على الجبال . فحينما أخذوه الى ڤالومبروزا لم يثر بهاء غاباتها فيه غير الضجر . ثم قاموا برحلة أخرى من تلك الرحلات الطويلة بمركبة معدة للسفر ، والطفل لم يبلغ من العمر بعد إلا بضعة أشهر . الطفل ينام في أحضان المربية ؛ وفلاش يجلس على ركبتي السيدة براوننغ . مضت المركبة لاتلوي على شيء ، وهي تتسلق بصعوبة بالغة مرتفعات جبال الأپنين . كادت السيدة براوننغ تفقد السيطرة على نفسها من شدة السرور .لم تستطع أن تبتعد عن النافذة . ولم تجد من الألفاظ في

twitter @baghdad_library

اللغة الانكليزية بأكملها ما يكفي للتعبير عما شعرت به . " ... إن المناظر الرهيفة ، وهي تكاد تكون كالرؤى ، لجبال الأپنين ، والتنوع الرائـــع للشكل واللون ، والتحـــولات المفاجئة ، الفذة ، لهذه الجبال ، وغابات الكستناء وهي تتحدر بفعل ثقلها ذاته الى الوديان السحيقة ، والصخور المتلاصقة ، الناتئة من أثر السيول الجارفة ، والروابي ، رابيةً فوق رابية ، إنما هي تراكم وجودها المهيب كأنها قد خلقت نفسها بنفسها ، فتتغيّر من لونهـــا إبان هذا الجهد الجهيد " - كان جمال الأپنين هذا قد وهب ميلاداً لكلمات بهذا العدد الضخم فهي تتصادم وبعضها يسحق بعضاً لتزول من الوجود . لكن الطفل وفلاش لم يشعرا بشيء من هذا الحافز ، ولا بشيء من هذا القصور . كلاهما كان صامتاً . فلاش " مدّ رأسه من النافذة ولم يعتبر المنظر جديراً بالرؤية ... إن لديه إحتقـــاراً عظيماً للأشجـــار والروابي ولأي شيء من هذا القبيل " ، فهكذا استخلصت السيدة براوننغ . والمركبة تمضي مقرقعةً . نام فلاش فنام الطفل . ثم بدت أخيراً الأضواء والبيوت ، وكان الرجال والنساء يمرون أمام نوافذ المركبة . لقد دخلوا قريةً ما . فانتبه فلاش على الفور . " ... عيناه تحملقان بتولّه ؛ نظر شرقاً ونظر غرباً حتى ليحسب المرء أنه كان يدوّن الملاحظات أو يعدّها إعداداً في خاطره " . ذلك أن المشهد الإنساني هو الشيء الذي يحركه . ينبغي ، في ما يبدو ، أن يبلور الجمال الى مسحوق أخضر أو بنفسجي وينفتح بزرقة سماوية في القنوات القصوى تحت خياشيم فلاش حتى تمسّ حواسه ؛ وعندئذٍ يتفجر الجمال فيه لا على شكل كلمات بل وجداً صامتاً . إن الذي تراه السيدة براوننغ يشمه

فلاش ، والذي تكتبه يتنشقه .

هنا ، إذن ، ينبغي لكاتب السيرة أن يتوقف بحكم الضرورة متأملاً . فلئن كانت ألفا كلمة ، أو ثلاثة آلاف ، غير كافية للتعبير عما نرى – وقد كان على السيدة براوننغ أن تقر شخصياً بأن جبال الأپنين هزمتها لغوياً ، إذ كتبت : " إن قلمي عاجز عن أعطاء فكرة عن هذه الأشياء " – فكيف بنا وليس لدينا أكثر من كلمتين ونصف للتعبير عما نشم . إن الأنف الإنساني لا وجود له عملياً . وأعظم الشعراء في العالم لم يشموا شيئاً سوى ورد الحدائق من جهة وروث البهائم من جهة أخرى . أما التدرج الذي لا يحصى بينهما فهو غير مدون . مع هذا فإن فلاش إنما يعيش في الغالب في عالم الرائحة . فالحب ما هو إلا رائحة ؛ الشكل واللون رائحتان ؛ الموسيقى والعمارة ، الشريعة والسياسة والعلم ، كلها رائحة . الدين نفسه بالنسبة الى فلاش رائحة . أما إذا أردنا أن نصف أبسط خبرة له مع قطعة اللحم اليومية مثلاً ، أو مع قطعة البسكويت فهو أمر يفوق اقتدارنا . بل حتى الشاعر سوينبيرن لم يكن بوسعه أن يقول ماذا كانت تعني رائحة شارع وميول بالنسبة الى فلاش في عصر يوم حار في حزيران . أما وصف رائحة كلبة اسپانيولية ، ممزوجة برائحة المشاعل وأكاليل الغار والبخور والرايات والشموع والظفيرة من ورق الورد سحقها كعب حذاء نسائي حريري مضمخ بالكافور ، فلعل شكسپير ذاته ، لو أنه كان قد توقف متأملاً في منتصف كتابته لمسرحية أنطونيو وكليوپاطرة ... لكنْ شكسپير لايتوقف . لايسعنا إذن ، ونحن نعترف بقصورنا ، إلا أن نلاحظ أن إيطاليا بالنسبة الى فلاش ،

twitter @baghdad_library

في تلك السنين من حياتـــه التي كانت أكثرها اكتمالاً وحرية وسعادة ، إنما عنت بالدرجة الأساس تعاقباً في الروائح . ولابد من الافتراض أن الحب كان يفقد إغراءه بالتدريج . أما الرائحة فقد بقيت . والآن وقد استقروا مرةً أخرى في كازا غيدي ، فإن لديهم جميعاً مايشغلهم . السيد براوننغ يكتـب بانتظام في إحدى الغرف ؛ السيدة براوننغ تكتب بانتظام في غرفة أخرى . الطفل يلعب في غرفة الحضانة . لكن فلاش يتسكع في شوارع فلورنسا ليتمتع بنشوة الرائحة . إنه يتخذ سبيله خلال الشوارع الرئيسية والشوارع الخلفية ، خلال الميادين والأزقة ، بوساطة الرائحة . ويتشمم طريقه من رائحة الى رائحة ؛ الخشنة منها والناعمة ، المظلمة والذهبية . إنه يذهب داخلاً وخارجاً، صاعداً ونازلاً ، حيث يطرقون النحاس ، حيث يخبزون الخبز ، حيث تجلس النسوة يمشطن شعورهن ، حيث تتراكم أقفاص الطيور عالياً على الرصيف ، حيث ينسكب النبيذ في بقع حمراء غامقة على الأرض ، حيث تفوح الجلود وعدّة الخيول والثوم ، حيث يدق القماش وترتعش أوراق الكروم ، حيث الرجال يجلسون ويشربون ويبصقون ويلعبون الزار – إنه يعدو داخـــلاً وخارجاً ، وأنفه دائماً الى الأرض ، ينهل من خلاصة الجوهر ؛ أو يعدو وأنفه في الهواء يتنبذب مع الشذا . إنه ينام في هذه البقعة الحارة من الشمس – والشمس تجعـــل الحجر يفـــوح فوحاً – أو يبغي ذلك النفق من الظل – والظل الحاد يهيج رائحة الحجر هياجاً . إنه يزدرد عناقيد بأسرها من الأعنـــاب الناضجـــة لا لسبب إلا لرائحتهـــا الأرجوانية ؛ إنه يعلك ويبصق النفايات العسرة من لحم العنز

والمعكرونة مما تلقيه الزوجة الأيطالية من الشرفة – ومالحم العنز والمعكرونة إلا روائح خشنة ، روائح قرمزية . إنه يتتبع العنوبة المثيرة للحبور المتصاعدة من البخور بحثاً في الزوايا البنفسجية الرهينة في الكاتدرائيات المعتمة ، ويحاول وهو يتشمم أن يلعق الذهب عن القبر المصبوغ . أما حس اللمس لديه فليس أقل حدةً من ذلك . إنه يعرف فلورنسا في حال نعومتها المرمرية وفي حال خشونتها الآجرية والحصبائية . والطيات الوبرية من السجف ، والأنامل والأقدام الملساء من الحجر تتلقى لعق لسانه ورعشة خيشومه المرتجف . وهو يتلقى بأخامص أقدامه الحساسة جداً الطبع الجليّ للكتابات اللاتينية النبيلة . وباختصار إنه عرف فلورنسا كما لم يعرفها كائن إنساني من قبل قط ؛ كما لم يعرفها راسكن ولا حتى جورج اليوت ، إنه يعرفها كما لايعرفها إلا البكم . وما من إحساس واحد من آلاف أحاسيسه المتوفزة سلّم نفسه لتشويه الكلمات .

ومع أن من الممتع لكاتب السيرة أن يستنتج أن حياة فلاش في منتصف عمره كانت عبارة عن عربدة من الملذات تفوق الوصف ؛ وأن يرى هذا الكاتب أنه في حين كان الطفل يلتقط يوماً بعد يوم كلمة جديدة وبذا ينحّي حساً متوفزاً بعيداً عن متناوله بعض الشيء ، كان فلاش قد قدّر له أن يظل الى الأبد في فردوس من جوهر الأشياء بأتقى أحوالها ، فردوس تضغط فيه الروح العارية على العصب العاري – فإن مثل ذلك الاستنتاج لن يكون صحيحاً . لم يكن فلاش يعيش في فردوس كهذا . إن الروح وهي تنتقل من كوكب الى آخر ، والطيور التي تجوب بعيداً فوق الثلوج

twitter @baghdad_library

القطبية أو الغابات الاستوائية ، لن تصل الى مدى الرؤية لبيوت بني الإنسان ودخانها الملتوي المنبعث من نيران الأخشاب ؛ تلك الروح أو هذه الطيور قد تتمتع بمثل تلك المناعة الحصينة ، بمثل تلك النشوة المكتملة . لكنّ فلاش كان قد نام على ركب إنسانية وسمع أصوات البشر . إن جسده معرّق بالعواطف الانسانية ؛ وهو يعرف كل تدرجّات الغيرة والغضب واليأس . والآن تهري جلده البراغيث في الصيف . فالشمس التي تنضج الكروم تأتي كذلك بالبرغوث ، وهذه مفارقة قاسيـــة . كتبت السيدة براوننغ تقول : " إن استشهاد سافونا رولا هنا في فلورنسا ليس أسوأ من استشهاد فلاش في الصيف " . فالبرغوث (*) يثب من كل زاوية من زوايا البيوت الفلورنسية ؛ وينزلق فيقفز من كل صدع في الحجر العتيق ؛ من كل طيّةٍ في السجاد ؛ من كلِ معطف وقبعة ودثار . إنه يعشش في لبدة فلاش . يشق طريقه قرصاً في أثخن منطقـــة من جلـــده . فلاش يحـك ويهـرأ . عانـت صحتـــه من ذلك . أصبح نكداً ، نحيفاً ، ومحموماً . لجئوا الى الآنسة متفورد يناشدونها . كتبت لها السيدة براوننغ تقول بقلق : هل ثمة علاج للبرغوث ؟ أما الآنسة متفورد ، وهي لاتزال تجلس في سقيفة

(*) يبدو أن إيطاليا كانت مشهورة ببراغيثها في منتصـف القرن التاسع عشر . بل إن البرغوث قام بكسر تقاليد لم يكن من الممكن تجاوزها بدونه . مثلاً ، حين ذهب هوثورن لتناول الشاي مع الآنسة بريمر فـي روما (١٨٥٨) كتب يقول : : تكلمنا عن البرغوث – الحشرة التي تدخل في كل عضو من أعضاء الجسد هنا في روما ، وهي من الشيوع والحتمية بحيث لايتحرج المرء من الإشارة الى الشقاء الذي تسببه . كانت الآنسة بريمر المسكينة تعاني العذاب من لسعات هذا البرغوث وهي تصب لنا الشاي ... "

الخضروات في " ثري مايل كروس " وتكتب المسرحيات المأساوية ، فقد وضعت قلمها جانباً وبحثت في وصفاتها القديمة – ماذا تعاطت الكلبة " مي فلاور " ؟ ماذا تعاطت الكلبة " روزباد " ؟ لكن براغيث " ردنغ " تموت بقرصة واحدة . أما برغوث فلورنسا فهو فحلٌ أحمر . قد لا تكون مساحيق الأنسة متفورد بالنسبة إليه سوى شيء من قبيل السعوط . وفي محاولة يائسة جثا السيد والسيدة براوننغ على ركبتيهما بجانب جردل من الماء وبذلا ما في وسعهما لاجتثاث الوباء بالصابون وفرشاة الحك والمِحَسّة . كان ذلك عبثاً . أخيراً لاحظ السيد براوننغ ذات يوم ، وهو يأخذ فلاش الى مشيته المعتادة في الخارج ، أن الناس تؤشر إليه ؛ وسمع رجلاً يضع إصبعاً على أنفه ويهمس : " جَرَب " . وبما أن " روبرت شفوف الآن بفلاش شغفي أنابه " فإن خروجه الى مشيته عصراً مع الكلب الصديق أصبح أمراً لايطاق بعد سماعه لتلك الوصمة . فروبرت ، كما كتبت زوجته ، " لم يعد يستطيع احتمال الأمر بعد الآن " . لم يبق إلا علاج واحد لكنه علاج يكاد يكون في جذريته كالمرض ذاته . ومهما كانت درجة الدمقراطية التي آل إليها فلاش ومهما بلغ عدم اكتراثه بعلامات المرتبة الاجتماعية فإنه لايزال باقياً على عهده الذي نعته به فيليب سدني : جنتلمان بالولادة . إنه يحمل شجرة نسبه في عنقه . وفروته تعني له ما تعني ساعة ذهبية محفورة بشعار الأسرة لمزارع مدقع تقلصت أراضيه الشاسعة الى حجم الدائرة في هذه الساعة . وما الشيء الذي يقترح السيد براوننغ التضحية به الآن إلا فروة فلاش . ناداه ، " وتناول مقصاً فأتى على شعره حتى صيره شبيهاً بأسد ."

twitter @baghdad_library

حين كان روبرت براوننغ يقص شعر فلاش فيتساقط شعار الجنس الاسپانيولي الكوكر الى الأرض ، ويتضح الشكل الزائف لحيوان مختلف تماماً ، أخذ فلاش يشعر بأنه أمسى مخنثاً ، وأصغر حجماً ، وقد لحق به خزي كبير . تساءل وهو يحملق في المرآة ؟ ماذا أنا الآن ؟ فأجابته المرآة بصدق المرايا القاسي : " أنت لاشيء " . إنه ليس أحداً . ولم يعد فلاش بالتأكيد كلباً من الجنس الاسپانيولي الكوكر . وبدت له أذناه وهو يحملق في المرآة كأنهما ترتعشان ، فهما الآن عاريتان عن الشعر وغير مجعدتين . لكأن ملائكة الحقيقة والضحك ، وهي مفحمة في الاقناع ، كانت تهمس في أذنيه . أن تكون لاشيء – أليس هذا ، بعد اللتيا والتي ، هو الحال الأكثر إرضاءً في العالم بأسره ؟ نظر مرةً أخرى في المرآة . ها هو أثر طوقٍ من شعر حول عنقه . إن ترسم صورة كاريكاتيرية لأبهة المدعين بكونهم شيئاً مذكوراً – أليس هذا بحد ذاته حرفة ؟ على أية حال ، ومهما كان القول الفصل في هذا الأمر . أضحى فلاش متخلصاً بالتأكيد من البراغيث . نفض أثر الشعر عن رقبته . رقص على قوائمه العارية ، الهزيلة . انتعشت روحيته المعنوية أيما انتعاش . انتعشت كما لعلها تنتعش روحية غانية حسناء ، وهي تترك فراش المرض فتجد وجهها مشوهاً الى الأبد ، فتقوم وتحرق ملابسها ومواد الزينة ، وتضحك جذلى لأنها لن تحتاج الى النظر في مرآةٍ كرةً أخرى ولن تخشى إهمال عشيق أو جمال غانية منافسة . انتعشت روحية فلاش كما لعلها تنتعش روحية كاهن وقد صُبّ أمداً طويلاً في النشاء والجوخ ، حين يرمي بياقته في سلة المهملات وينتش أعمال فولتير من الخزان . هكذا

تهادى فلاش بعد أن حلق حلقاً صيرّه شبيهاً بأسد ، لكنه كان قد تخلص من البراغيث . كتبت السيدة براوننغ إلى شقيقتها تقول : " إن فلاش حكيم " . لعلها كانت تفكر بالإغريق الذين قالوا إن السعادة لايتم بلوغها إلا عن طريق الشقاء . إما الفيلسوف الحق فهو ذاك الذي خسر فروته وتخلص من البراغيث .

بيد أن فلاش لم ينتظر طويلاً قبل أن يُخضع للاختبار فلسفته التي كسبها حديثاً . فقد تكررت في صيف ١٨٥٢ علامات ظهرت في كازا غيدي تدل على اقتراب أزمة من تلك الأزمات ، أزمة تتلبد بصمت كصمت مجر ترك مفتوحاً أو خيطٍ ترك متدلياً من طبته ، ولكنها بنظر الكلب تمثل شيئاً يتهدده كما السحب المحملة بالبرق بنظر راعي الغنم أو الإشاعات المنبئة بالحرب بنظر رجل السياسة . ثمة تغيير آخر تشير إليه هذه العلامات ، ثمة رحلة أخرى . حسنا ، فما الضير في هذا ؟ الصناديق تحمل الى الأسفل وتشد بالحبال . الطفل يحمل بين ذراعي مربيته . ثم ظهر السيد والسيدة براوننغ وهما بملابس السفر . المركبة عند الباب . وفلاش ينتظر انتظار الفيلسوف في الردهة . حين يكونون جاهزين يكون جاهزاً . ما أن استقلوا المركبة حتى قفز فلاش بخفة وصعد وراءهم . الى أين ؟ الى البندقية ، الى روما ، الى باريس ؟ كلها سيّان بنظره الآن ؛ الناس كلهم إخوته . لقد تعلم ذلك الدرس . لكنه حين خرج في نهاية المطاف من المجهول كان بحاجة الى فلسفته كلها – إنه في لندن .

البيوت تمتد يميناً وشمالاً في جادات مستقيمة من الآجر المصفوف . الرصيف بارد وصلب تحت أقدام فلاش . هاهي سيدة

twitter @baghdad_library

تخرج من باب من صاج ذي مطرقة نحاسية وقد تزيّت بأردية فضفاضة بانخة من المخمل الأرجواني مع إكليل رقيق مزين بالزهور يستقر على رأسها . جمعت ذيولها من حولها ورمقت الشارع بامتعاض وهي تجيل نظرها في أرجائه ، حين كان أحد البوابين ينحني لفتح دَرْجَة الصعود لمركبة تجرها الخيول . إن شارع ويلبيك - ذلك أنه كان شارع ويلبيك حقاً - محفوف ببهاء من ضياء أحمر - ضياء ليس صافياً كالضياء الأيطالي ، بل هو نو اصفرار وكُدْرَة من غبار ألف من العجلات ، ووطء ألف ألف من حوافر الخيول . كان الموسم في لندن في ذروة قمته . إن طيلساناً من صوت وغيمةً من همهمة متلاحمة قد أطبقا على المدينة بدمدمة واحدة متراكبة . مرّ كلب جليل من كلاب الأيائل يقوده من سلسلته أحد السعاة . أجال شرطيٌ عيناً پوليسية وهو يمضي متبختراً بخطى إيقاعية . انبعثت الروائح شتى ، نكهة المرقة ، نكهة لحم البقر ، نكهة طهو اللحوم بالزبدة ، نكهة اللهانة المغلية مع لحم البقر ، نكهات تتصاعد من آلاف الطوابق التحتية . وضع أحد الخدم رسالة في صندوق البريد وهو ببزته الرسمية .

توقف فلاش برهة وقد أخذ بالعظمة المحيطة بحاضرة البلاد ، وهو يضع قدمه على عتبة الباب . توقفت الوصيفة ولسن أيضاً . بدت لها حضارة إيطاليا الآن تافهة تماماً ، ببلاطاتها وثوراتها وأنواقها العظام وفضائل حرسها الخاص ! وعندما مرّ الشرطي حمدت الله أنها لم تتزوج من السنيور ريغي رغم كل ما جرى . في تلك اللحظة انبثق شخص شرير من حانة مجاورة . ثمة رجل ينظر شزراً . انطلق فلاش بقفزة واحدة يقتحم الباب .

ظل فلاش محتجزاً بضعة أسابيع في غرفة جلوس بنزلٍ في شارع ويلبيك . ذلك أن الاحتجاز لايزال ضرورياً . فالهيضة قد وفدت ، ومع أنها أفادت بعض الشيء في تحسين الأحوال في الغرف السكنيةالقذرة ولكن ذلك لم يكن بالقدر الكافي . أما الكلاب فلا تزال تسرق ، ولا تزال تقاد بسلسلة في شارع ومبول ، أخذ فلاش يختلط بطبيعة الحال بالمجتمع . إنه يلاقي الكلاب عند صندوق البريد وأمام الحانة ؛ وقد رحبوا بعودته بما هم عليه من رسٍ طيب . فكالنبيل الانكليزي الذي لبث عمراً في الشرق وسرت إليه بعض عادات الأهالي هناك – والإشاعة تلمح فعلاً الى أنه قد ارتد عن دينه واعتنق ديناً آخر وله ولدٌ من غسالة صينية – النبيل الذي يرى ، وهو يتخذ مكانه في البلاط ، أن الأصدقاء القدامى على استعداد للتغاضي عن انحرافاته تلك فيدعى الى القصر ، ولو أنهم لا يأتون على ذكرٍ لزوجته ويكون من المسلم به عندهم أنه سينضم الى أسرته عند إقامة الصلوات – كذلك رحّب الكلاب من أرقى الأجناس في شارع ومبول بفلاش بين ظهرانيهم وتغاضوا عن الحالة المزرية التي كانت عليها فروته . إنما بدا لفلاش الآن أن ثمة وضعاً مريعاً يسود في أوساط كلاب لندن . كان شائعاً أن كلب السيدة كارلايل المدعو نيرون (*) قد قفز من النافذة من طابق علوي بقصد الانتحار . ويقال إن ذلك الكلب قد وجد ضغط الحياة

(*) كان الكلب نيرون (١٨٤٩–١٨٦٠) كما يقول كارلايل " كلباً كوبياً صغيراً (أم كان مالطياً ؟ وهو على أية حال هجين) ، كث الشعر ، أبيضه في الأكثر – كلباً ودوداً للغاية ونشطاً ، وفيما عدا هذا فهو لايتمتع إلا بمزايا يتبع

twitter @baghdad_library

بسيطة ، كما أن تدريبه قليل أو منعدم ." إن المواد الموجودة لكتابة سيرة حياته مواد وفيرة ، ولكنْ ليست هذه هي المناسبة للانتفاع منها . ويكفي أن نقول إنه سُرق ؛ وإنه جلب الى كارلايل صكاً مربوطاً حول رقبته يكفيه لشراء حصان ؛ وإنه كما يذكر كارلايل " قُذف به مرةً أو مرتين الى البحر ، الأمر الذي لم يعجبه مطلقاً " ؛ وإنه في ١٨٥٠ قفز من نافذة المكتبة ، وما أن تجاوز في قفزته سياج رحبة الباب حتى سقط على الرصيف . تقول السيدة كارلايل : " كان ذلك بعد الإفطار ، وهو يقف في النافذة المفتوحة ، يراقب الطيور ... وبينما أنا ممددة في سريري سمعت من خلال الحاجز الخشبي اليزابيث تصرخ " الله الله ! نيرون " فهرعت نازلة كأني ريح قوية فصرت في باب الشارع ... عندئذٍ وثبت لألا قيها وأنا بقميص النوم ... ونزل السيد (ك) من غرفة نومه وثقنه مغطى بالصابون فسأل : هل حدث شيء لنيرون ؟

– ياسيدي ، لابد أنه كسر سيقانه كلها ، فقد قفز من نافذتكم !

– ياستار ! قال السيد (ك) ذلك وعاد ليتم حلاقة ذقنه ." ولكن لم ينكسر الكلب عظم ، وبقي على قيد الحياة حتى داسته عجلة قصاب ليموت أخيراً بهذا الحادث في شباط ١٨٦٠ . وهو مدفون في صدر الحديقة في الحي الذي كان يسكنه آل كارلايل ، تحت شاهد حجري صغير .

وسواءٌ كان قد رغب بقتل نفسه ، أم كان يقفز وراء الطيور كما تلمح السيدة كارلايل ، فإن الأمر قد يكون صالحاً لكتابة مقالة مثيرة للاهتمام جداً عن علم النفس الكلبي . إن البعض يعتقدون أن كلب الشاعر بايرون قد جُنّ تعاطفاً مع سيده ؛ والبعض يعتقدون أن نيرون قد أصيب بسوداوية قاتلة جراء اختلاطه بالسيد كارلايل . أما مسألة علاقة الكلاب بروح العصر الذي عاشوا فيه ، وهل من الممكن أن نسمي أحد الكلاب كلباً اليزابيثياً ، والآخر أوغسطينياً ، والثالث فكتورياً ، بالإضافة الى التأثير الواقع على الكلاب من شعر أسيادهم وفلسفتهم ، فهي مسألة تستحق بحثاً أكثر تفصيلاً مما يمكن تقديمه هنا . غير أن دوافع نيرون تظل في الوقت الحاضر مجهولة يلفها الغموض .

في حيّه الراقي شيئاً لا يطاق . إن بوسع فلاش أن يصدق ذلك ، الآن وقد عاد ثانيةً الى شارع ويلبيك . فالاحتجاز ، وتكدّس الأشياء الصغيرة ، والخنافس السود ليلاً ، والذباب الأزرق الضخم نهاراً ، والروائح المتخلفة من لحم الظأن ، والوجود الدائم لأعذاق الموز على المنضدة الجانبية – كل هذا ، بالإضافة الى تجمع الكثير من الرجال والنساء بعضهم الى جانب بعض ، وهم بملابس سميكة غير مغسولة غالباً ، بل غير مغسولة أبداً ، قد فعل فعله في طبعه وشدّ من أعصابه . إنه يقعي ساعات طويلة تحت الخزان الكبير في النزل . كان الباب الخارجي موصداً على الدوام . وكان عليه أن ينتظر أحداً ما ليقوده بالسلسلة الى الخارج .

ثمة حادثتان غيرّتا من رتابة الأسابيع التي قضاها فلاش في لندن . فذات يوم من أواخر ذلك الصيف ذهب الزوجان براوننغ لزيارة الكاهن تشارلز كنغزلي في فارنهام . في مثل هذا الفصل من السنة في إيطاليا تكون التربة هناك جرداء وقوية كالطابوق ، والبراغيث متفشية ، والمرء يسحب نفسه سحباً بخمول متنقلاً من ظل الى ظل ، ويسره إذا وجد فيئاً يلقيه على الأرض نراع أحد تماثيل دوناتيلو . أما هنا في فارنهام فحقول من عشب أخضر ؛ وبرك من ماء أزرق ؛ وغابات تغمغم ؛ وتربة مجذّرة ، ناعمة حتى أن براثن فلاش تثب لمجرد لمسها . قضى آل براوننغ وآل كنغزلي النهار معاً . وحين كان فلاش يهرول خلفهم انطلقت الأبواق القديمة مرةً أخرى ؛ عادت إليه نشوة الوجد القديمة – هل هي الأرانب أم هي الثعالب ؟ وعدا فلاش فوق مروج " ساري " كما لم

twitter @baghdad_library

يعدُ منذ أيامه في " ثري مايل كروس " . انطلق طير من طيور الحجل مارقاً في الفضاء في نفثة من الأرجوان والذهب . كان فلاش قد أوشك أن يطبق بأسنانه على ريش الذيل المتطاير حينما انطلق صوت ، وقرقع سوط من خلفه . هل هو الكاهن يدعوه بحدة الى الطاعة والنظام ؟ على أية حال لم يستأنف فلاش الركض . فغابات فارنهام يجري الحفاظ عليها على نحوٍ صارم .

بعد أيام قلائل ، وكان فلاش يستلقي في غرفة الجلوس بشارع ويلبيك ، دخلت السيدة براوننغ وهي بملابس المشي فنادته من تحت الخزان الكبير . مرّرت السلسلة في طوق رقبته . سارا معاً في شارع ومبول للمرة الأولى منذ أيلول ١٨٤٦ . حينما بلغا الباب رقم ٥٠ وقفا كما في السابق . وكما في السابق انتظرا . كان رئيس الخدم ، كما في السابق ، بطيئاً جداً في المجيء . أخيراً فُتح الباب . هل هذا هو الكلب كاتيلين يقعي على الحصير ؟ تثاءب الكلب العجوز وقد سقطت أسنانه وتمطى دون أن يلتفت إليهما . وفي الطابق الأعلى تسللا خلسةً صامتين كما نزلا ذات مرة . وبهدوء تام انتقلت السيدة براوننغ من غرفة الى غرفة وهي تفتح الأبواب كأنها تخاف مما قد تراه وراءها . خيمّت عليها الكآبة وهي تنظر هنا وهناك . كتبت تقول : " ... بدت لي الغرف كأنها أصغر حجماً ، وأعتم ضياءً ، والأثاث بحاجة الى ترميم " . أما اللبلاب فلا يزال يضرب على زجاج النافذة في غرفة النوم الخلفية . الستائر المصبوغة لاتزال تحجب البيوت . ما من شيء قد تغيّر. ما من شيء قد حدث طوال هذه السنين . وهكذا تنقلت بين

غرفة وأخرى ، وهي تتذكر الماضي وقد علا قسماتها الحزن والأسى . لكنّ فلاش كان ، قبل انتهاء هذا التفتيش بوقتٍ طويل ، نهباً للقلق . ماذا لو أن السيد باريت دخل فوجدها ؟ ماذا لو أدار المفتاح مقطب الجبين وأغلق عليهما الباب في غرفة النوم الخلفية الى الأبد ؟ أخيراً أغلقت السيدة براوننغ الأبواب ونزلت ، بهدوءٍ تام أيضاً . قالت : أجل ، البيت بحاجة الى تنظيف .

لم يبق لدى فلاش فيما بعد سوى أمنية واحدة – أن يغادر لندن ، أن يغادر انكلترا الى الأبد . لم يحس بالسعادة إلا بعد أن وجد نفسه على ظهر عبّارة في القنال في طريقهم الى فرنسا . كان البحر هائجاً أثناء العبور ، واستغرق عبورهم ثماني ساعات . حين كان المركب في مهب الرياح تتقاذفه الأمواج كان فلاش يقلب في رأسه حشداً من الذكريات المختلطة – عن سيدات بالمخمل الأرجواني ، عن رجال بملابس رثة يحملون الأكياس ؛ عن متنزه ريجنت ، والملكة فكتوريا تمر مروراً سريعاً مع مرافقيها وهم على صهوات الجياد ؛ عن خضرة العشب وعن الريف الانكليزي – كل هذا مرّ في خاطره وهو مستلقٍ على ظهر المركب ؛ ما أن رفع نظره حتى شاهد رجلاً طويلاً ، عبوساً ينحني فوق السياج .

سمع السيدة براوننغ تصيح : " السيد كارلايل ! " ؛ عندئذٍ – وهنا يجب أن نتذكر أن العبور كان سيئاً – أخذ فلاش يتقيأ بعنف . هرع البحارة بالأواني والمماسح . كتبت السيدة براوننغ : " ... انه أمر بمغادرة ظهر المركب صراحةً ، فيا للكلاب

twitter @baghdad_library

المساكين ." ذلك أن ظهر المركب لما يزل إنكليزياً ؛ والكلاب ينبغي إلاّ تتقيأ على سطح المراكب . هكذا كانت تحيته الأخيرة لسواحل وطنـــه .

الفصل السادس

النهايـة

أمسى فلاش كلباً هرماً الآن . إن الرحلة الى انكلترا والذكريات التي أثارتها قد أتعبته بلا ريب . ولوحظ عليه أنه أخذ يبتغي الظل أكثر مما يبتغي الشمس بعد عودته ، ولو أن ظل فلورنسا أشد حراً من شمس شارع وبول . إنه يتمدد وسنانَ على مدار الساعة وهو مضطجع تحت تمثال ، أو مقعٍ تحت فوهة النافورة من أجل بضع قطرات تنث في لبدته بين حين وحين . الكلاب الفتيان يتجمعون من حوله . ويحكي لهم حكايته عن وايت تشابيل وشارع وبول ؛ يصف لهم رائحة البرسيم ورائحة شارع أكسفورد ؛ يروي لهم نكرياته عن هذه الثورة وعن تلك – عن ارواق عظام جاءوا وارواق عظام ذهبوا ؛ أما الكلبة الاسپانيولية المرقطة في الزقاق على اليسار– فإنها ستستمر في الوجود الى الأبد . هكذا كان يقول . ثم يأتي السيد لاندور العنيف وهو يسير مسرعاً فيهز قبضته في وجهه بغضبٍ مفتعل ؛ وتتوقف إحدى السيدات لتخرج له قطعة بسكويت محلّى من حقيبتها اليدوية الصغيرة . الفلاحات في السوق يصنعن له فراشاً من أوراق الشجر في ظل سلالهم ويرمون إليه بعنقودٍ من عنب بين آنٍ وآخر . إنه معروف ومحبوب من فلورنسا كلها – من البسطاء والنوات . كلابهم وبشرهم .

لكنه أمسى كلباً هرماً الآن ، وميالاً على نحوٍ متزايد الى الاستلقاء ، لا تحت النافورة – فالحجر أقوى من أن تحتمله عظامه

twitter @baghdad_library

الواهنة – بل في غرفة نوم السيدة براوننغ حيث يؤلف شعار أسرة غيدي قطعة ملساء من رخام محفور على الأرض ، أو في غرفة الجلوس تحت ظل المنضدة . وذات يوم ، بعد مدة وجيزة من عودته من لندن كان ممدداً وقد غرق في نومٍ عميق . وكان هذا النوم العميق ، الخالي من الأحلام ، وهو نوم المسنين ، ثقيلاً عليه . والحق أن نومه اليوم كان أعمق حتى من نومه المعتاد ، إذ بدت له الظلمة في نومه كأنها تتكثف من حوله . ولئن حلم فإنما ليرى في ما يراه النائم أنه في قلب غابة بدائية لما قبل التاريخ ، بعيداً عن ضياء الشمس ، بعيداً عن أصوات البشر ، ولو أنه كان يحلم بين حين وحين بأنه يسمع الزقزقة الوسنانة لطير حالم ، أو يسمع ، عندما تعصف الريح بالأغصان ، ذلك التضاحك الذي عجمه الزمن لقردٍ متفكر .

ثم انفرقت الأغصان فجأةً ؛ وأطل الضياء هنا وهناك بحزم تبهر الأبصار . القرود تثرثر ؛ الطيور تتصايح وتتنادى فزعاً . جفل فلاش قائماً على أقدامه مستيقظاً . ثمة ضجة مذهلة كانت تنطلق من حوله . كان قد غرق في النوم بين الأرجل العارية لمنضدة إعتيادية في غرفة الجلوس . والآن يجد نفسه محشوراً بين رفيف التنورات النسائية وتموجات السراويل الرجالية . فضلاً عن ذلك كانت المنضدة ذاتها تترنح بعنف ذات اليمين وذات الشمال . لم يعرف فلاش الى أية جهة يفرّ . ما الذي يحدث هنا ؟ ما الذي حلّ في المنضدة هذه بحق السماء ؟ رفع صوته بنبحة استنطاق مطولة .

لايمكن هنا إعطاء جواب شاف عن سؤال فلاش . ولا يمكننا

أن نقدم إلا بضع حقائق صارخة . وباختصار ، قيل إن الكونتيسة بليسنغتون كانت قد اشترت في أوائل القرن التاسع عشر كرة بلورية من أحد السحرة . الكونتيسة نفسها " لم تستطع أن تفهم قط كيفية استعمالها " ؛ والحق أنها لم تتمكن قط من أن ترى شيئاً في الكرة سوى البلور . إنما تم بعد وفاتها بيع مقتنياتها فآلت ملكية الكرة الى آخرين من الذين " ينظرون نظراً أعمق ، أو ينظرون بعيونٍ أصفى " فرأوا أشياء أخرى في الكرة بالإضافة الى البلور . ولا يعرف بالتحديد هل كان المشتري هو اللورد ستانهوپ ، وهل هو الذي كان قد نظر " بعيونٍ أصفى " . لكن من المؤكد أن اللورد ستانهوپ هذا كان يمتلك بحلول سنة ١٨٥٢ كرة بلورية ، وما كان على هذا اللورد إلا أن ينظر فيها حتى يرى في ما يراه " أرواح الشمس " . ومن الواضح ان مشهداً كهذا لايجوز لنبيل مضياف ان يحتكره لنفسه ، فكان اللورد متعوداً على عرض كرته في حفلات الغداء وعلى دعوة الأصدقاء لكي يروا أرواح الشمس هم أيضاً . كان في هذا الأمر الفريد ما فيه من متعة غريبة . وسرعان ما أصبحت الكرات البلورية هي " بدعة العصر " دون غيرها ؛ ولحسن الحظ بادر عويناتي في لندن الى الاعلان عن أن بوسعه صنعها ، دون أن يكون حاوياً ولا ساحراً ، وإن كان سعر البلور الانكليزي مرتفعاً بالطبع . وهكذا أصبح كثير من الناس في أوائل الخمسينات من القرن الماضي يملكون الكرات البلورية وإن كان " عدد من الأشخاص يستعملونها ولا يملكون الشجاعة للاعتراف بذلك " ، كما يقول اللورد ستانهوپ . أصبح شيوع استحضار الأرواح في لندن ظاهراً الى حدٍ أدى الى إثارة

twitter @baghdad_library

شيء من الفـــزع ؛ فاقتـــرح اللورد ستانلي على السير ادوارد ليتون " أن على الحكومة أن تعين لجنة تحقيق لكي تتوصل الى الحقائق جهد الإمكان " . وسواءً كانت الشائعة عن تأليف لجنة حكومية وشيكاً هي التي أفزعت الأرواح ، أم أن الأرواح نفسها ، شأنها شأن الأجساد ، تميل الى التكاثر في أمكنة مغلقة ، فما من شك في أن هذه الأرواح بدأت تظهر علامات القلق ، فإذا بها تفرّ بأعداد كبيرة من الكرات البلوريـــة لتتخذ من أرجل المناضد مكاناً جديداً لإقامتها . ومهما كان الدافع فإن سياسة الأرواح هذه كانت ناجحة . فالكرات البلورية غالية الثمن ؛ في حين يمتلك الناس جميعاً مناضد في منازلهم . وهكذا فحين عادت السيدة براوننغ الى ايطاليا في شتاء ١٨٥٢ وجدت أن الأرواح قد سبقتها الى هناك ؛ كانت جميع مناضد فلورنسا قد سرت اليها العدوى . كتبت تقول : " إن الناس ابتداءً من المفوضية الملكية حتى دكاكين العطارين إلانكليز (يقدمون مناضد) كما يقدمون الشاي .. في كل مكان . وحين يجتمعون حول منضدة ما فليس هذا لكي يلعبوا الورق " .كلا إنهم يجتمعون لحل جفر الرسائل التي تبعث بها أرجل المناضد . وهكذا فإذا سئلت منضدة عن عمر طفل تقوم المنضدة " بالتعبير عن نفسها بذكاء وذلك بأن تدق بأرجلها ، مستجيبة وفق حروف الهجاء " . ولئن كان بمستطاع المنضدة أن تخبرك أن طفلك ذاته يبلغ من العمر أربع سنوات فهل هناك من حدود لطاقتها ؟ أعلن في المتاجر عن مناضد دوّارة . وأمست الجدران مليئة بالملصقات التي تعلن عن الأعاجيب . وبحلول عام ١٨٥٤ بلغت سرعة انتشار الحركة حداً بحيث أن : أربعمئة ألف

أسرة في أمريكا قدمت أسماءها ... باعتبارها تتمتع فعلاً بالمطارحة الروحية ." وجاءت الأنباء من انكلترا تفيد بأن السير ادوارد ليتون نفسه قد استورد " عدداً من الأرواح الدقاقة الأمريكية " الى مدينة نيبوورث ، الأمر الذي أثمر نتيجة باهرة هي أن السير ادوارد أخذ يعتقد بأنه غير مرئي شخصياً (*) فهكذا قيل للصغير أرثر راسل حين شاهد " رجلاً مهنباً طاعناً في السن وغريب المظهر بجلباب رث " وهو يحملق فيه أثناء تناول الإفطار .

حين نظرت السيدة براوننغ في كرة اللورد ستانهوب البلورية في وليمة للغداء فإنها لم تر شيئاً – سوى أن الكرة كانت تمثل علامة فريدة من علامات العصر . بل إن روح الشمس أخبرتها أنها توشك على الذهاب الى روما ؛ وبما أنها لم تكن توشك على الذهاب الى روما فقد كذبت أرواح الشمس . على أنها أضافت تقول بصدق : " لكني أحب ما هو رائع " . إنها ليست إلا إمرأة مغامرة . كانت قد ذهبت الى شارع مانينغ وهي تخاطر بحياتها ؛ فاكتشفت هناك عالماً لم تحلم به قط على مسافة نصف ساعة ركوباً من شارع وميول . لم لايكون هناك عالم آخر هو على مسافة نصف لحظة مشياً من فلورنسا – عالم أفضل ، عالم أجمل ، حيث

(*) تقول السيدة هيوث جاكسون في كتابها " طفولة فكتورية " : " أخبرني اللورد أرثر راسل ، بعد سنين ، أنه حين كان صغيراً أخذته أمه الى نيبوورث . وفي صباح اليوم التالي كان في القاعة الكبيرة يتناول الإفطار ، فإذا بذات عجوز غريب المظهر بجلباب رث يدخل ويسير حول المائدة ببطء وهو يحملق بالضيوف فرداً فرداً . فسمع جارة أمه تهمس لها : " لاتكترثي ، فهو يظن أنه غير مرئي " . " كان هذا هو اللورد ليتون نفسه " . (ص١٧–١٨) .

twitter @baghdad_library

يسكن الموتى وهم يحاولون بلوغنا عبثاً ؟ عزمت بأية حال ، على أن تجازف . وهكذا جلست الى المنضدة أيضاً . وجاء السيد ليتون ، الابن اللامع للأب غير المرئي ، وغيره من أصحاب الأسماء المعروفة . جلسوا كلهم الى المنضدة استحضاراً للأرواح ، وعندما انتهت المنضدة من رفسها أخذوا يتناولون الشاي و "السترويري" مع الكريمة ، " وفلورنسا تذوب في أرجوان الهضاب ، والنجوم تنظر إلينا " وهم يتكلمون ويتكلمون : " ... يالها من حكايات حكيناها ، يالها من معجزات أقسمنا على وقوعها ! أوه إننا مؤمنون هنا ، ياليزا ، عدا روبرت ... " من ثم دهمهم الرجل الأهم المدعو السيد كيركب بلحيته البيضاء . أطل لكي يصيح بهم : " يوجد عالم روحي – توجد دولة مستقبلية . أنا أعترف بذلك . وقد اقتنعت أخيراً . " فإذا كان هذا الرجل ، ومعتقده " أقرب شيء الى الإلحاد " دائماً ، قد ارتد لمجرد إنه سمع على الرغم من صممه " ثلاث نقرات بدرجة من ارتفاع الصوت جعلته يقفز من مكانه " فكيف تستطيع السيدة براوننغ أن تكف عن وضع يديها على المنضدة ؟ كتبت تقول : " تعرفون أنني ذات رؤى وأني أميل الى طرق أبواب العالم الحاضر كلها في محاولة للخروج من الدنيا ." وهكذا استدعت المؤمنين الى كازا غيدي ؛ وهنالك جلسوا ، أيديهم على منضدة غرفة الجلوس ، وهم يحاولون الخروج من الدنيا .

جفل فلاش وقد اعتراه تخوف حاد . التنورات والسراويل تهفهف من حوله ؛ المنضدة تقف على رجل واحدة . ولكنْ ، ومهما كان الذي تسمعه وتراه السيدات والسادة حول المنضدة فإن فلاش

لايسمع شيئاً مهما ، لايرى شيئاً . صحيح ، إن المنضدة تقف على رجل واحدة ، لكن المناضد ستكون كذلك إن أنت انحنيت بقوة على جانب واحد منها . إنه هو نفسه كان قد قلب عدداً من المناضد فوبخّوه عن ذلك أشد التوبيخ . أما الآن فها هي السيدة براوننغ وهي تحدّق بعينيها الواسعتين ، تفتحهما كل الفتح . كأنها ترى شيئاً رائعاً في الخارج . هرع فلاش الى الشرفة ينظر منها . هل ثمة نوق أعظم آخر يمر راكباً بصحبة الرايات والمشاعل ؟ لم يستطع فلاش أن يرى شيئاً سوى متسولة عجوز وقد جلست القرفصاء في ركن الشارع أمام سلتها المتلئة بالرقي . مع هذا فمن الواضح أن السيدة براوننغ كانت ترى شيئاً ؛ بل أنها كانت تراه شيئاً بديعاً جداً . كانت قد بكت ذات مرة في أيام شارع وميمول الخالية دون أي سبب يستطيع أن يراه ؛ كانت قد ضحكت ذات مرة وهي ترفع أمام عينيها قرطاساً مرقطاً . أما هذا فشيء مختلف . إن هناك في نظرتها الآن شيئاً يفزعه . إن هناك شيئاً في الغرفة ، أو في المنضدة ، أو في التنورات والسراويل ، لايعجبه أبداً .

وبمرور الأسابيع سيطر هذا الإنشغال باللامرئي على السيدة براوننغ . فهي تجلس ، في نهار جميل حار ، الى المنضدة بدلاً من مراقبتها للسحالي وهي تنزلق داخلةً بين الصخور وخارجة منها ؛ وهي تنادي ولسن ، في ليلة حالكة الظلام كثيرة النجوم ، إذا كان السيد براوننغ في الخارج ، فتأتيها ولسن متثائبة ، بدلاً من قراءتها في كتاب أو تمرير يدها على ورقة . وإذ اتتها ولسن جلستا الى المنضدة معاً الى أن تأخذ تلك القطعة من الاثاث ،

twitter @baghdad_library

وواجبها الرئيسي بنظر فلاش توفير الظل ، بالرفس على الأرض ، والسيدة براوننغ تهتف قائلة إن المنضدة تقول لولسن بأنها ستمرض في الحال . تجيبها هـذه بأنها لا تشعر إلا بالنعاس . لكنْ سرعان ما تصرخ ولسن نفسها ، ولسن المرأة المستقيمة ، الانكليزية القحة التي لاتقهر ، فيغمى عليها ، وتهرع السيدة براوننغ هنا وهناك بحثاً عن " الخل الصحي " . إن هذه بنظر فلاش ، طريقة غير سارة جداً لقضاء أمسية هادئة . من الأفضل للمرء كثيراً أن يجلس ويقرأ في كتاب .

لا ريب أن التوتر والرائحة غير الملموسة وغير السارة ، والرفسات والصيحات والخل ، أثرت كلها في أعصاب فلاش . كان حسناً جداً من الطفـل پنيني أن يصلي داعياً " لفلاش بنمـــو الشعر " ؛ كان ذلك طموحاً يستطيع فلاش أن يفهمه . لكن هذا الشكل من الصلاة التي تتطلب حضور رجال تفوح منهم رائحة الشر وهم بمظهرهم الرث ، والغرائب التي تصدر عن قطعة من أثاث هي في ظاهرها من خشب الصاج الصلد ، قد أغضبته بقدر ما أغضبت ذلك الرجل القوي ، العاقل ، الحسن الملبس ، الذي هو سيده . لكنّ الأنكى من أية رائحة بالنسبة الى فلاش ، الأنكى من الغرائب الأخرى كلها ، كانت تلك القسمات على وجه السيدة براوننغ وهي تحملق بنظرها خارج النافذة كأنها ترى شيئاً رائعاً في حين لم يكن هناك من شيء . أوقف فلاش نفسه أمامها . نظرت عبره كأنه غير موجود . تلك كانت أقسى النظرات التي رمقته بها على الاطلاق . كانت أسوأ من غضبها الدفين حين عض فلاش السيد براوننغ في ساقه ؛ أسوأ من ضحكتها الساخرة حين

انغلق الباب على قدمه في متنزه ريجنت . هناك حقاً لحظات يأسف فيها على شارع وميول ومناضده . المناضد في المنزل رقم ٥٠ لم تكن تقف قط متمايلةً على رجل واحدة . وكانت المنضدة الصغيرة ذات الإطار المدور التي عليها حليّ سيدته تقف دائماً بثبات تام . في تلك الأيام الخوالي لم يكن عليه إلا أن يثب الى أريكتها فتجفل الآنسة باريت متيقظة لتنظر إليه . أما الآن فقد وثب الى أريكتها ، لكنها لم تعره انتباهاً . كانت تكتب . لم تلتفت إليه . استمرت تكتب – " كذلك ، ويطلب من الوسيط ، تناولت الأيادي الروحية من المنضدة ظفيرة من الزهور كانت هناك ، ووضعتها على رأسي . كانت اليد التي قامت بذلك يداً من أكبر الأحجام التي يعهدها الانسان ، بيضاء كالثلج ، وجميلة جداً . كانت قريبة مني قرب يدي هذه التي أكتب بها الآن ، وقد رأيتها رأي العين ." ضربها فلاش ببراثنه بشدة . نظرت عبره كأنه غير مرئي . قفز من الأريكة وعدا نازلاً الى الشارع ".

كان عصراً لاهباً يشوي الوجوه . والمتسولة العجوز في ركن الشارع قد غرقت في نوم عميق بجانب سلتها . الشمس تبدو كأنها تئز في السماء . هرول فلاش ، وهو ينتحي جانب الظل من الشارع حذاء الطرق المعروفة جيداً المؤدية الى السوق . كان الميدان بأسره يلتمع بمظلات الشبابيك ومنصات البيع والشمسيات البراقة . البائعات يجلسن الى جانب سلال الفاكهة ؛ طيور الحمام ترفرف ، الأجراس ترن ، والسياط تقرقع . كانت كلاب فلورنسا الهجينة ذات الألوان المتعددة تركض داخلةً وخارجة وهي تتشمم

twitter @baghdad_library

وترفع براثنها . كل شيء نو حيوية كحيوية خلية النحل وساخن كأنه فرن . وفلاش يبغي الظل . رمى بنفسه قرب صديقته كاترينا ، تحت ظل سلتها الكبيرة . ثمة قلّة بنية اللون من الزهور الحمراء والصفراء تلقي ظلاً قرب السلة . من فوقهما تمثال ، وهو يرفع يداً ممدودة ، فيحيل لون الظل بنفسجياً . أقعى فلاش هناك في الظل البارد ، وهو يراقب الكلاب الفتية منصرفةً الى شؤونها . كانت في نهش وهرش ، تتمطى وتتقلب ، بكل ما في الجذل الفتيّ من تهتك . كان بعضهم يطارد بعضاً داخلين خارجين ، يدورون ويدورون ، كما كان هو قد طارد ذات مرة الاسپانيولية المرقطة في الزقاق . زاغت أفكاره نحو رننغ برهة – نحو كلبة السيد پارتريج الاسپانيولية ، نحو حبه الأول ، نحو نشوات وجد الشباب ونقاواته الخليّة البال . حسناً ، كان هو قد حظي بنصيبه . وهو لايحسدهم الآن على نصيبهم . لقد وجد هذا العالم لطيفاً للعيش فيه . وهو لايشعر الآن بأنه في خصام معه . حكّت البائعة أذنه من الخلف . طالما كانت قد صفعته لسرقته حبة عنب ، أو لسوء سلوك آخر ؛ لكنه عجوز هرم الآن ، وهي عجوز هرمة . هو يحرس لها الرقي وهي تحك له أذنه . ثم هي تحيك وهو يغفو . الذباب يطن فوق الرقية الكبيرة الوردية اللون وقد شقت نصفين لإظهار شحمتها الزاهية .

الشمس تتقد لذيذة من خلال أوراق الزنبق ، من خلال المظلة الخضراء والبيضاء . تمثال الرخام يلطف من حرارتها فيحيلها الى سلسبيل . فلاش يستلقي ويدع الشمس تتقد خلال فروته حد الجلد العاري . حين يشوى جنب من جنبيه ينقلب فيدع الشمس

تشوي الجنب الآخر . في غضون ذلك يأتي رواد السوق فيثرثرون ويتساومون ؛ وتمرّ المشتريات ؛ يتوقفن ويتلمسن بأصابعهن الخضروات والفواكه . ثمة على الدوام طنين وغمغمة من أصوات إنسانية من النوع الذي يحب فلاش أن يصغي إليه . غفا بعد حين تحت ظلال الزنابق . نام كما تنام الكلاب حين تحلم ، وارتعدت أرجله – هل كان يحلم باصطياد الأرانب في اسپانيا ؟ هل كان يجتاز تلاً ساخناً مع رجال سمر يصيحون " سپان ! سپان ! " والأرانب تمرق من الأجمة ؟ ثم أقعى ساكناً مرةً أخرى . والآن عوى ، بسرعة ، بنعومة ، مرات متعاقبة . لعله سمع الدكتور متفورد يحث كلابه السلوقية على الصيد في رننغ . ثم تحرك ذيله باستخذاء . هل سمع الآنسة متفورد العجوز تصيح " أيها الكلب الرنيل ! " فينسل إليها حيث وقفت بين اللفت تلوّح بمظلتها ؟ من ثم أقعى هنيهةً وهو يشخر ، يلفه النوم العميق ، نوم الشيخوخة السعيدة . وعلى حين غرة ارتعشت كل عضلة في بدنه . أفاق بجفلة عنيفة . أين هو ؟ في وايت تشاپيل بين المتوحشين ؟ هل ستنزل السكين على رقبته مرةً أخرى ؟

ومهما كان الأمر فإن فلاش أفاق من حلمه في حالة من الفزع . انصرف لايلوي على شيء كأنه يفرّ طلباً للأمن ، كأنه يبتغي ملاذاً يلجأ إليه . البائعات في السوق ضحكن منه ورجمنه بالعنب الخائس وناديته لكي يعود . لم يعرهن انتباهاً . كادت عربات الجر تدهسه وهو يمرق خلال الشوارع – والرجال الواقفون لقيادتها يلعنونه ويضربونه بسياطهم . الأطفال نصف العراة

twitter @baghdad_library

يرمونه بالحصى ويصرخون من خلفه : " المكلوب ! المكلوب ! " وهو يجري هارباً . أمهات الأطفال يركضن الى أبوابهن ويمسكن بأطفالهن بفزع . هل جنّ فلاش إنن ؟ هل أن الشمس أصابت مخه ؟ أم أنه سمع مرةً أخرى بوق الصيد من يد الآلهة فينوس ؟ أم أن روحاً من الأرواح الأمريكية الدقاقة ، روحاً من الأرواح التي تسكن في أرجل المناضد ، قد تملكته أخيراً ؟ مهما كان الأمر فإن فلاش مضى من أقرب المسالك ، يعدو من شارع الى شارع ، حتى وصل باب كازا غيدي . اتجه مباشرةً الى الطابق الأعلى ودخل مباشرة الى غرفة الجلوس .

كانت السيدة براوننغ مستلقية على الأريكة ، تقرأ . رفعت نظرها ، فدهشت . لا ، لم يكن الداخل روحاً من الأرواح المستحضرة . ماهذا إلا فلاش ، ضحكت . عندئذٍ ، وعندما وثب فلاش الى الأريكة و وضغط وجهه بقوة على وجهها ، ترددت في ذهنها كلمات قصيدة لها فيه :

أنت ترى هذا الكلب . فليس إلا بالأمسِ
أنْ أخذتُ أفكّر ذاهلةً عن وجوده هنا
الى أن تداعتْ فكرةً على فكرةٍ لتسيل من عينيّ دمعةً إثر دمعةٍ
حين قام من الوسادة ، حيث أستلقي بليلةً الخدّ ،

رأسٌ هو في شعره الكث كالإله فونوس .(*)
يشقّ طريقه فجأةً فيلتصق بوجهي ، –
عينان كبيرتان بصفاء الذهب تُبغَتُ عينيّ –
أذنٌ متدليةٌ خفقت كلا الخدّين لتجفّف النثيث !
جفلتُ أولاً ، كما يجفلُ فردٌ من أركاديا ،
يدهشه إلهٌ ملتحٍ في بستانٍ غسقي ؛
لكنْ ، ما أن مسح الطيفُ الملتحي دموعيَ مسحاً
حتى عرفتُ فيه فلاش ، وسموتُ فوق الدهشةِ والحزن ، –
شاكرةً الإله بان ذاته
الذي يقودُ ، بوساطة مخلوقاتٍ دنيا ، الى مرتفعاتِ الحب .

كانت قد نظمت هذه القصيدة ذات يوم قبل سنين في شارع وميول وهي في حال تعيسة جداً . إنها سعيدة الآن . ويسير بها العمر الآن نحو الشيخوخة .كذلك فلاش . انحنت عليه هنيهةً . إن وجهها بما فيه من فم كبير وعينين واسعتين وخصلٍ من الشعر المجعد الكثيف لايزال يشبه وجهه على نحو غريب . أنهما شقان مختلفان ، وإن كانا قد صبا في القالب نفسه . ولعل أحدهما يكمّل ما هو سابتٌ في الآخر . لكنها إمرأة ؛ وهو كلب . استمرت السيدة براوننغ تقرأ . ثم نظرت الى فلاش مرةً أخرى . لكنه لم ينظر إليها . إن تغيراً فائقاً قد اعتراه . فصاحت : " فلاش ! " . لكنه كان صامتاً . لقد كان حياً ؛ وهو

(*) Faunus إله الحيوان عند الرومان

twitter @baghdad_library

ميتٌ الآن .(*) هذا كل ما هنالك . والغريب أن منضدة غرفة الجلوس ظلت ثابتة تماماً .

(*) من المؤكد أن فلاش قد مات ؛ لكن تاريخ ميتته وطريقة وفاته غير معروفتين . والإشارة الوحيدة التي بحوزتنا تتألف من جملة مفادها " أن فلاش عاش عمراً مديداً وهو مدفون في أقبية كازا غيدي ." إن السيدة براوننغ مدفونة في المقبرة الانكليزية في فلورنسا ، وأما روبرت براوننغ فمدفون في وستمينستر آبي . لذا لايزال فلاش يرقد تحت البيت الذي سكنه الزوجان براوننغ حيناً من الدهر .

تقول المؤلفة في آخر الكتاب أنها تقر بقلة المصادر الخاصة بكتابة هذه السيرة . لكنها تشير للقارىء الذي يرغب بتدقيق الوقائع أو الذي يبتغي التوسع في الموضوع الى :

- قصائد أليزابيث باريت براوننغ في فلاش .
- رسائل روبرت براوننغ وأليزابيث براوننغ (في جزأين) .
- رسائل أليزابيث براوننغ (في جزأين) .
- رسائل أليزابيث براوننغ الموجهة الى رتشارد هورن (في جزأين) .
- أليزابيث باريت براوننغ : رسائل الى شقيقتها ١٨٤٦ - ١٨٥٩
- أليزابيث باريت براوننغ في رسائلها ، بقلم پرسي لوبوك .
- رسائل ماري راسل متفورد (في جزأين) .

twitter @baghdad_library

المؤلفة:

ولدت المؤلفة فرجينيا ولف في لندن عام ١٨٨٢. وقد كانت عضواً بارزاً في «جماعة بلومزبري» وهي نخبة من الأدباء كان لهم تأثير كبير على الثقافة الانكليزية في مطلع هذا القرن. تزوجت ليونارد وولف وأسسا معاً مطبعة هو غارث التي ساهما من خلالها بنشر الأعمال الثقافية المتميزة.

كانت فرجينيا ولف واحدة من رواد منهج تيار الوعي في الرواية. ومن الشخصيات الأدبية المؤثرة في عالم النقد والصحافة. أشهر رواياتها «السيدة دالاوي» (١٩٢٥)، «الفنار» (١٩٢٧) و«الأمواج» (١٩٣١) وهي جميعاً مترجمة إلى العربية. انتحرت غرقاً عام ١٩٤١.

الرواية:

تقول فرجينيا ولف: «كل شيء يصلح لأن يكون المادة المناسبة لرواية». وقد برهنت على ذلك بكتابة هذه الرواية الرائعة التي استقبلت بالاعجاب المنقطع النظير لطرافة مادتها وبراعة سبكها وادائها.

لقد اختارت المؤلفة النظر إلى العالم من خلال زاوية غير مألوفة حين قدمت المجتمع الفكتوري من وجهة نظر الكلب «فلاش» وهو كلب الشاعرة الانكليزية اليزابيث باريت زوجة الشاعر الانكليزي روبرت براوننغ. وحين فعلت ذلك فإنها لم ترم إلى اظهار قدرتها الروائية الفائقة حسب، إنما أرادت أن تلتقط تلك التفاصيل من الحياة وأن تطرح ذلك النوع من الأسئلة التي يحتاج اكتشافها عيوناً أخرى ووعياً مختلفاً عن عين الانسان ووعيه. فجاءت هذه الرواية تسجيلاً لحياة مجتمع إنساني زاخر مرصوداً من الخارج ومطروحاً للاستنكار والتاويل. «ودار الشمس» إذ تقدم هذا العمل الأدبي البارز تساهم في إغناء المكتبة العربية باختيارها نموذجاً غريباً ومتميزاً من النتاج الثقافي العالمي.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

السعر: ٤ دنانير

روايات الشمس

الغلاف: مطبعة الراية ـ هاتف: ٨٨٧٨٣٥١

twitter @baghdad_library